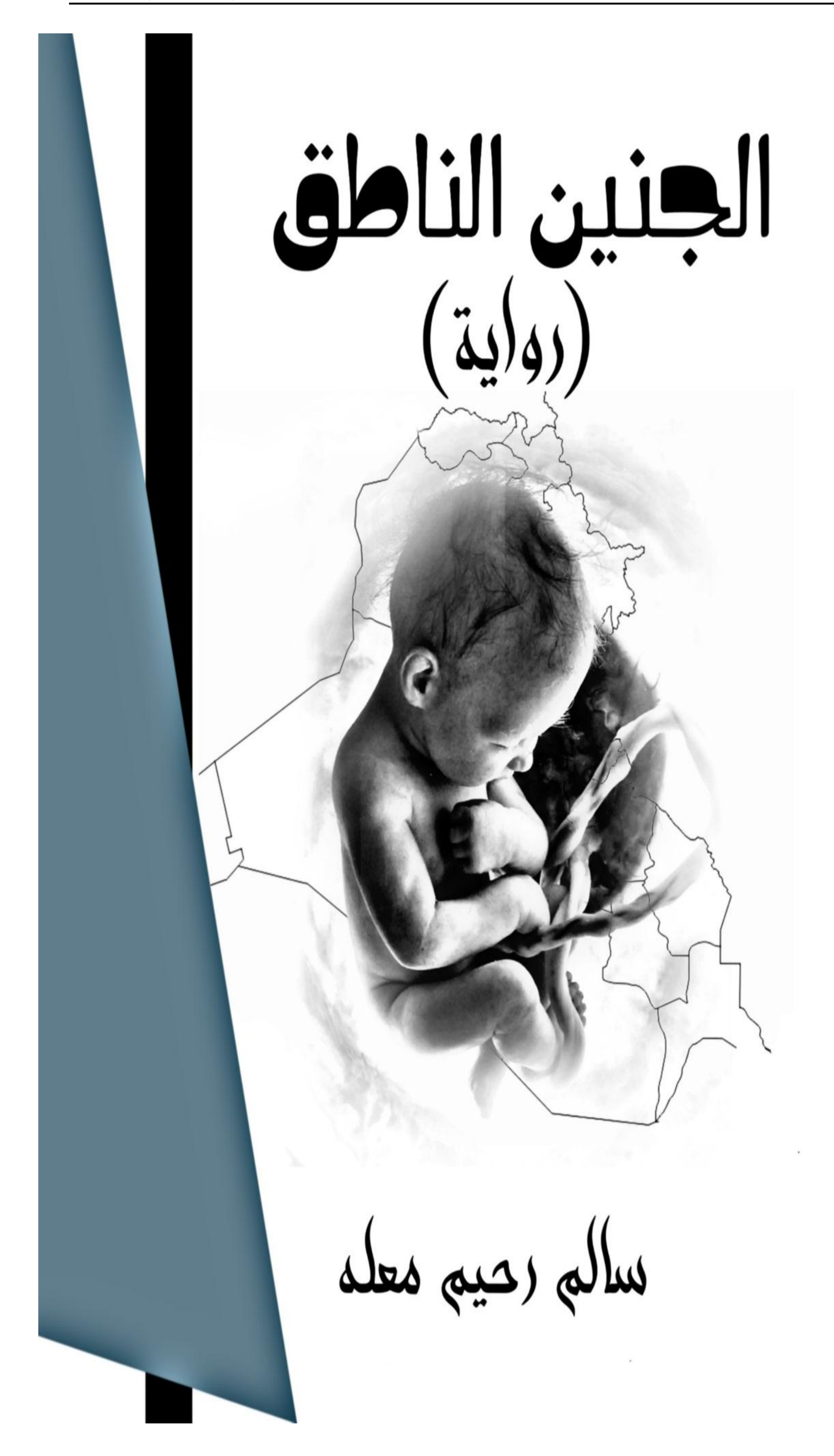

الجنين الناطق
(رواية)
سالم رحيم معله


مكتبة الإكسير الإلكترونية
Al-Exir Electronic Library

الإهداء

لمحسن جنين فاطمة الذي لم يرَ عالم النور

لعبد اللّه الرضيع الذي لم يعش مرحلة الطفولة إذ فُطم بنبلة حرملة

لكل جنين ما زال يرقد في بطن أمه ينتظر أن يخرج لمعترك الحياة

لكل طفل عاش في العراق على مدى التأريخ من أول يوم إلى نهاية الدنيا

لكل طفل عاش في العراق وهو يأمل تحقق أحلامه اللامعة أمام ناظريه

لكل يتيم فقد أحد أبويه منذ حكومة البعث وحكومات الأحزاب والمحاصصة

إلى الصديق والأخ الحبيب حسن داود الخزعلي الذي شجعني على الاستمرار بالكتابة

أهدي هذه الرواية

استيقظت من نوم عميق وأنا أشعر بالراحة وتبسمت فجأة إني أحس بالنشوة ولي رغبة كبيرة في المشي والتنزه... ولكن المكان الذي أنا أمكث فيه مظلم جدا ولا أرى أي شيء

لماذا هذا المكان مظلم؟

هل أنا في غرفة مؤصدة؟

هل أنا في زنزانة محكمة؟

هل أنا في غار كهف سحيق؟

لماذا هذا الظلام يا ترى؟

هل أنطفئ السراج؟

هل غابت الشمس قبل أن تشرق حتى؟

هل الكهرباء والمحطة متعطلة بفعل أحدهم؟

وأن كان الظلام دامسا فسأمشي عسى أن أجد بصيصا من النور يضيء دربي ...

ولكن كيف أمشي ورجلي مقيدة ويدي مكتفة... لا أمشي. سأبقى حتى تشرق الشمس..

بقيتُ ولكن أشتد بيّ العطش والجوع، العطش أشد وطأة

أين الماء؟

أين النهر؟

أين سبيل الماء؟

سأكتفي ولو بشرب قنينة ماء مقطر؟

بغتة جاء الماء ووجدت طعمه في حلقومي، الماء لم يدخل حلقي صبا صبا ولا مصا مصا، إني أشعر به يتدفق من الداخل وكأنه يخرج من المعدة ليعود لها فهل في معدتي عين من الماء ولست أدري؟؟؟

صحيح الماء قد رواني والعطش قد غادر وهو مبتسم كأنه يعرف شيئا وقد أخفاه عني ولم يخبرني بشيء.

إلا أن جهل الأمور قد أبهرني، فأنا لا أعرف أين أنا، ولا أعرف مصدر الماء ومصدر الغذاء، ومع هذا الظلام الدامس أفضل شيء لي هو أن أخلد إلى النوم مجددا فهو ملاذي وبه خلاصي من الحيرة التي أعيشها، فنمت ونام جهلي معي وأنا وهو نتوسد وسادة واحدة وقد غطينا بنوم رغيد...

استيقظت ولكن ليس كالعادة بل بسبب صوت دافئ يخاطب أحدهم : كيف حالكِ حبيبتي؟

فجاء صوت آخر مجيب له: بخير

ولم ينقطع الصوتان، وأخذ أحدهما يحاور الآخر وهما يتبادلان المحبة وممتزجان بالرأفة أحدهما يتحبب للآخر وكأنه قد عجن بماء طينته وشرب من معينه وأكل من الماعون نفسه، وسمعت محاورة كاملة.

قال أحدهم: لقد رجعتُ وأنا أجر الحسرات وتتلوها الآهات؟

فقال الآخر: لماذا، ما الذي حصل معك اليوم؟

فرد قائلا: اليوم وأنا أمشي في أزقة المدينة سمعت أحدهم يسب بنتا له، وبعد السب أنهال عليها بالضرب في وسط الطريق وهي تولول وتبكي والناس تتفرج عليها ولا أحد ينجدها. فدنوت منه وسلمت عليه، فرد السلام بصوت مضطرب و ما تريد أنت؟ قلت : هذه البنت ابنتك كما فهمت من كلامك، فلا تقسو عليها أمام الناس، ولا تشمتها، فقال: لو كان الأمر بيدي لدفنتها بالتراب...

وما أن سمعت عبارته هذه، حتى تذكرت قوله تعالى: (**وإذا المؤودة سئلت بأي ذنب قتلت**) فهذا الرجل ما زال يعيش الجاهلية وهو في القرن الحادي والعشرين وفي عصر التطور والتكنلوجيا.

فقال الآخر: يا حبيبي، الآن عرفت الناس تعيش تلك الحالة أنا اسمع ذلك كل اليوم من جيراننا وفي السوق بل في كل مكان.

ودام الصمت بينهما وكأنهما يتبادلان الحزن والأسى، وإذا بصوت أحدهما أختفى، كأنه ذهب بعيدا، وصوت الآخر أخذ يردد يا إلهي يا ربي أنت لنا وأنت المعين فألطف بحالنا يا رب بحق فاطمة وأبيها وبعلها

وبنيها والسر المستودع فيها أجعل الجنين الذي في أحشائي يعيش الواقع وليس الجاهلية.

أنا ما أن سمعت هذه المحاورة وما قد ختمت بهذا الدعاء خاطبت نفسي: من هذه المرأة؟ ومن هذا الذي كان يحدثها؟ وأين ذلك الرجل وابنته؟ وأين اؤلئك الناس؟ هذه أسئلة مهمة فجوابها يحدد مكاني ويحدد شخصيتي ويحدد سبب الظلمة التي أعيشها هنا منذ زمن.

كل هذه المحاورة في جهة و القول الذي ذكر فيها والذي عبر بقوله (**وإذا المؤودة سئلت بأي ذنب قتلت**) هذا القول يختلف في نغمه ولحنه عن كلام الأشخاص الذي سمعتهم، وكأنه من جنس آخر غير جنس كلامهم، ولذلك عندما يذكره الآخر عبر عنه بقوله تعالى.

كل ذلك جرى في خاطري وتشرب في ذهني ولم تكن الظلمة وحدها هي التي تشغل بالي وتزيد حيرتي بل زادت بذلك وأصبحت الحيرة متراكمة.

أنا أريد أن أمشي وأرى ذلك الشخص وأمشي في ذلك الطريق لعلي أرى موقفا مشابها لموقف الرجل وابنته، وأكلمه وأرى سبب تذمره ومشكلته وأعالجها له بعيدا عن الشتم والضرب فهذه أساليب جاهلية ولكن ما هي الجاهلية؟ أنه سؤال جديد أضيف لقائمة الأسئلة السابقة.

أتفكر في ذلك وإذا بالصوت يعود من جديد: أين أنتِ يا سعاد؟ أين أنتِ يا سعاد؟

فأجابته سعاد: أنا هنا يا سعد، في المطبخ أعد لكم طعام الغداء، فتعال.

أسمع خفق النعل وسير القدم كأنه أقترب لتلك المرأة سعاد.

سعاد ماذا طبخت لنا اليوم؟

طبخت لكم الأرز مع الحساء و السمك المقلى. أما كوثر فهي لا تأكل السمك لذا سأشوي لها فخذ الدجاج.

ما أن سمعتُ تلك المأكولات، تذكرت جوعي وعطشي فقد نسيته لهول ما أسمعه وما يجري في العالم الخارجي عالم النور وعالم الناس وعالم المدينة والشوارع، الأكل هنا يأتني جاهزا بدون شواء أو قلي أو إعداد في المطبخ، فطعامي ممزوج بالماء والذي تعودت طعمه في حلقي دون مضغ أو مساعدة اللعاب في الفم.

يا إلهي أنه النوم مجددا، نعست بشدة وسأنام في الظلام بدون أخماد السراج أو إسدال الستار و قد سئمت من النوم نفسه فليس هناك أريكة أتكئ عليها أو سرير انبسط فيه أو وسادة أضعها تحت رأسي، فقد وسادة الحيرة و الجهل مع تراكم التساؤلات المستمرة والتي تزداد شيئا فشيئا دون جواب شافي ورد وافي، وليس هنا من يشاركني الحديث ومن يسمع كلامي ومن يؤنسني في وحدتي ويزيل عني وحشتي ويجيب عن أسئلتي.

نمت وغطيت بنوم عميق ولكن النوم لا يدوم، فقد استيقظت ولم افرك عيوني لأن يدي مقيدتان، وما الفائدة من فرك العيون إذا كنت سأنام في الوقت القريب أيضا. وأنا هكذا وإذا بذلك الصوت مجددا وهو الصوت الذي يختلف عن جنس الأصوات لما يحتويه من نغم وموسيقى خاصة أنجذب لها بشدة وأنشد معها دون شعور كأنه يأخذني لعالم آخر كنت فيه ونسيته ولم يبقى منه إلا النغم أنه صوت هادر وفيه معاني كثيرة لا يذكره غيره، وبينما أنا أستمع لذلك الصوت وإذا به قد هفت وجاء معه صوت لصغار وهم يتناجون بينهم وقد يعلو صوتهم ويخمد مع اصوات أخرى كأنها تعبر عن حركة وانتقال...

خرج صوت يشق تلك الأصوات: كوثر هذا ليس وقت افلام الكارتون وليس وقت سبيستون، أنه وقت صلاة الفجر فأطفئ التلفاز وأخمدي للنوم فبعد الفطور تلبسين ثيابك وتذهبين للمدرسة؟

فترد عليها الفتاة كوثر: وماذا ستفعلين أنتِ؟

فتجيبها سعاد: سأصلي صلاة الفجر وستصلين معي.

الصلاة التي تؤديها سعاد وكوثر فيه نغم من ذلك الصوت الذي ذكرني بعالم نسيته، فقد سمعتها تقول: (**بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين إياك نعبد وإياك نستعين اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين انعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين**) وسمعت بعدها: (**بسم الله**

الرحمن الرحيم والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر)، وأشعر أن حركة سعاد تختلف عن حركاتها المعتادة وكأنها تقوم وتقعد، وبعد ذلك كررت المعاني نفسها: (**بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين إياك نعبد وإياك نستعين اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين انعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين**) وسمعت بعدها (**بسم الله الرحمن الرحيم قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد**)

إن هذه الكلمات بصوت سعاد وابنتها كوثر ولكن تختلف عن الكلام الذي يكررونه دائما وهم يتكلمون عن الأكل والشرب والسوق والدوام والإجازة والجيران والأقرباء وما يصدر من التلفاز الذي يستمعون له،

بعد ذلك قالت كوثر لأمها سعاد: أماه أنا لا أنام الآن، بل سأكتب الدرس الذي يتكلم عن قواعد اللغة العربية.

سعاد: وما درسكم في قواعد اللغة العربية؟

كوثر: درسنا المبتدأ والخبر.

سعاد: ومن الدكتورة التي تدرسكم هذه المادة؟

كوثر: أنها الدكتورة هند.

سعاد: هند، كانت صديقتي في الدراسة الابتدائية لكنها أكملت دراستها وأصبحت دكتورة، أما أنا فقد تركت الدراسة في مرحلة الاعدادية؟

كوثر: لماذا يا أمي تركتِ الدراسة؟

سعاد: لقد كنت مجتهدة في الدراسة، ولم أرسب في أي صف، وعندما أكملت الاعدادية، قبلت في الجامعة، ولكن أبي أعترض على دراستي فيها، فتركتُ الدراسة طاعة لأبي.

كوثر: ولماذا أعترض أبوك الذي هو جدي، فأنا أراه إنسانا مجدا ومحبا للعلم ويسعى في حوائج الناس ولم يعترض لأحد بسوء. لماذا يا أمي؟

سعاد: لأن أمي ماتتْ وأنا في المرحلة الإعدادية وكنا نسكن في قريبة، والجامعة بعيدة عنا، فقد نحتاج لركوب السيارة، كما إن أبي ما زال يعيش عصر القبيلة والتي تمنع الدراسة في الجامعة إذ يرون أنها تغير البنت وتذهب حشمتها. وإن شاء الله تعالى قريبا أقدم على البكالوريوس في اللغة العربية في جامعة بغداد للتعلم عن بعد.

كوثر: أماه أنا منذ زمن لم نذهب لزيارة أخوالي.

سعاد: سنذهب عندما تكتمل تأشيرة السيارة والتي بعث لهم طلب على الأميل وسيأتوننا بعد غدا.

سمعت كل ذلك وليس لي تصور عن المدرسة والدكتورة ودرس اللغة العربية ومرحلة الابتدائية ومرحلة الاعدادية ومعنى القرية ومعنى القبلية ومعنى الجامعة وما هي السيارة...

يبدو أن الأسئلة تزداد وما من جواب؟ وأنا لا زلت لا أعرف من أنا؟ وأين أنا؟ وكم سأبقى عنها؟ ومتى تنجلي الظلمة؟ وكيف سأكون في عالم النور وعالم الناس، أنا أفضل النوم على هذه الحيرة التي أصبحت أكبر من حجم هذا المكان الذي أقطن فيه، يا ليت هذه سعاد أو كوثر أو ذلك الرجل يكلموني ويجيبوا ويكشفوا عني هذه الغمة، الحل الأمثل هو النوم فهو الملاذ الي منذ اليوم الأول.

استيقظتُ على صوت طرق الباب فخرجت له سعاد...

تفضل.

لا، فلنذهب

حسنا، دعني أخبر سعيدا وكوثر.

حسنا إني سأنتظركم عند السيارة

سعادة نادت كوثر وسعيدا، بعدما حملت كوثر الحقائب...

أنا اسمع هذه الأصوات وهم يتحركون ليخرجوا للسائق، وتغير الصوت كأنه صوت سيارة، وكوثر تنادي أمها أماه لقد تحركت السيارة ولكن أي طريق نسلكه؟

سعاد: لا تهتمي يا كوثر فإن السيارة فيها خارطة وهي تسير على نظام الجي بي أس وستسير في الطرقات التي قد هيأت لذلك.

أسمع هذا الحوار وأدركت بسفر عائلة سعيد ولم أعرف إلى أين يتجهون، وأنا بهذه الحالة سمعت السائق يخاطب سعيد: يا أبا كوثر، هل تريد أن تسترخي وتنام؟ أو تريد سماع شيئا من جهاز الصوت في السيارة ؟ أو تشاهد فلما على الشاشة؟ وإن شاءت أن تأكل أو تشرب أنت وعائلتك فهذه ثلاجة السيارة تحتوي على عصائر ومأكولات سريعة؟

أجابه سعيد: لا أريد شيئا مما ذكرت، أريد أن أطالع رواية قد جلبتها معي من المكتبة.

كوثر: صاحت يا أماه كم يبعد الطريق عن ذي قار؟

سعاد: إن يكون أكثر من ساعتين؟

كوثر: لماذا أليس الطريق بعيد؟

سعاد: نعم، لكن الطرق سالكة و علامات المرور الالكترونية التي تنظم السير تقي على الزحام.

سمعت كل ذلك وأنا لم أشاهد سعيد ولا سعاد ولا كوثر ولا السيارة ولا السائق ولا الطرق.

وعلا صوت كوثر: ما تلك البناية يا أبي؟

فقال لها: يا بنيه أنه مصنع الأجهزة الالكترونية.

كوثر: وماذا يصنعون فيه؟

يصنعون الحاسبات والأجهزة النقالة.

كوثر: وأين يرسلونها؟

أنها للاستهلاك المحلي وللتصدير للدول الخارجية.

كوثر: أبتاه وهل العراق يصنع هذه الأجهزة المعقدة؟

نعم، فصناعة العراق ليس لها مثيل في دول العالم، بل الصين واليابان يحتاجون خبراء منا.

كوثر: ومن يقوم بتمويل هذه المصنع؟

أنها الحكومة، وتعين أشخاصا يستثمرون ذلك مع فائدة ترجع لهم، وتنقل الأموال للخزينة وتكون من الأموال الممولة في الحكومة لجميع القطاعات الخاصة والعامة.

كوثر: لماذا لم تؤسس شركة أو مصنع؟

بنيه أنا دكتور في اللغة العربية أدرس في المرحلة الإعدادية، وقد اكتفيت بما تعطيني الدولة وبما وفرت لي من بيت وأموال وحقوق، كما أني عليّ ضريبة للماء والكهرباء. نعم جدك الذي سنزوره بعد قليل في مزرعته مصنع للألبان وللحوم المعلبة وللقماش، وقد تعاقدت معه الحكومة، لتستثمر أرضه الزراعية وما فيها من مواشي.

سمعت كل ذلك ولم يتوقف الأمر عند المدرسة والجامعة، بل ازدادت غرابة، فهناك معامل وشركات ومصانع وحكومات واستثمار، يا ترى ماذا يعنون بذلك وما الحكومة، ولماذا هي التي تدير تلك العجلة، وما قضية الأموال التي يلهثون وراءها المصانع والمعامل والشركات والناس جميعا.

وبينما أنا متفكر في ذلك وإذا بالسائق يخاطب سعيد: يا سعيد سنصل عما قريب، ولم تقرأ روايتك التي أتيت بها من البيت؟

سعيد: نعم لم أفتحها حتى فقد أنشغلت بالكلام مع كوثر.

السائق: إذن دعني أسألك عن طبيعة دراسة الماجستير والدكتوراه وكيف حصلت عليها؟

سعيد: الماجستير والدكتوراه دمجت في مرحلة واحدة وأصبحت سنوات خمس، في كل سنة فصلان، وبعد كل فصل بحث عامل يشرف عليه أستاذ دكتور، ويصحح وينشر في المجلات، ويطبع على نفقة الجامعة ويكون كتابا رسميا في المكتبات العامة وضمن الاختصاص.

السائق: وماذا درستم خلال هذه السنوات الخمس؟

سعيد: درسنا كتب اللغة القديمة والحديثة وجميع العصور الأدبية وفي جميع البلدان ابتداءً بالأدب اليوناني والعربي والانكليزي والأوربي. ودرسنا خلال السنوات الخمس القران الكريم بجميع تفاصيل علومه وبمختلف المدارس النحوية والتفسيرية والفكرية.

السائق: وكيف درستم كل ذلك خلال السنوات الخمس فقط؟

سعيد: إن الدراسات السابقة لسنة ٢٠٢٠ كانت دراسات مبعثرة والطالب يدور في حلقة مفرغة ويدرس حواشي الكتب والشروحات ومنهج التدريس يعتمد على الحشو والحفظ، لذا يتخرج الطالب وينسى كل ذلك في السنوات الأولى...

ونحن ندرس مناهج مضغوطة وتمثل خلاصة العلوم لأننا في عصر السرعة والتواصل والحفظ ليس ضروريا بقدر الفهم وتوليد الأفكار، فإذا أصبحت مفكرا في اختصاصك تكون مبدعا ومواكبا لجميع مراحل التطور.

السائق: تمنيت الطريق يطول لنسمع ما تتحفنا به أبا كوثر ولكن وصلنا لمزرعة الجد. تفضلوا بالنزول، وقد أخذت الأجرة بشحن البطاقة للشركة وقد اخذت منكم خمسة عشر دينار عراقي.

يبدو أنهم نزلوا من السيارة فنادت كوثر أباها لماذا لم ننزل عند باب الدار؟

سعيد: طلبت من السائق أن ننزل في الشارع الرئيس حتى نتمشى وننظر إلى الحقل والمواشي والأشجار المختلفة، وإلى النخيل الشامخة وإلى الحركة الدؤوب لعمال مصنع الألبان، كما أن المشي في البستان يجلو الهم وينقي الهواء ويزيد التأمل ويزيح التراكمات السلبية وينعش الذاكرة، كما

أن المشي يفيد الصحة ويحرك العضلات المختلفة، وبذلك يكون الجسم قد خرج من نمطه الخاص الذي أعتاد عليه من التلقي والجلوس...

أنا متى أخرج من هذه الحجرة لأتنفس هواء الحقل، وأرى تلك الأشجار وتنجلي عني الغمة بسبب هذه الحيرة التي أعيشها، ويلي ماذا جنيت؟ وماذا بدر مني لأبقى محبوسا هنا؟ متى الفرج يا إلهي؟ ومتى تنجلي عني هذه الظلمة التي كالجبل الراسخ على صدري والملقي بثقله على قلبي.

وتجول ببالي هذه الخطرات، وإذا بصوت قد شاخ صاحبه وصحبته الخشونة و تعلو نبراته على كل صوت: أهلا وسهلا بعائلتك يا سعيد، أهلا بنية سعاد، أهلا حفيدتي كوثر... كيف حالكم؟ متى وصلت؟ لماذا لا تخبروني؟

سعيد: السلام عليكم يا حاج، كيف حالك إن شاء الله تكون بكل خير.

سعاد: السلام عليكم أبي، دعني أعانقك فقد اشتقت إليك.

كوثر: مهلا أمي دعيني أسلم على جدي العجوز.

بعد هذه الجولة جاءني النعاس الذي لا بدّ منه، فنامت عيناي التي لم تفتح بعد وصمت سمعي الذي كان مثقلا بسماع هذه الأصوات في هذه الرحلة الطويلة إلى ذي قار.

العجوز: سعيد دعني أخبرك بشيء؟

سعيد: تفضل، يا حاج.

العجوز: تعلم ماذا جرى بين سنة ٢٠٠٣ و٢٠٢٠ لقد كثر المشعوذون وهم يجرون الناس بتخيلاتهم ويعتاشون على فضائل أموالهم...

سعيد: نعم، وماذا تريد من هذا الكلام؟

العجوز: لقد التقيت في سنة ٢٠٣٥ برجل عجوز وكان عمري في حينها خمسون سنة فسلمت عليه، ورد عليّ السلام، وفجأة أخبر عما في ضميري، فتعجبت كل العجب، وقلت كيف عرفت ذلك؟ قال: إني أعرف أكثر من ذلك، أنا أجدت التخاطر عن بعد.

قلت له: وماذا تقصد بالتخاطر عن بعد؟

قال: ليس لك أن تفهمه في هذا الوقت ولكن أمثل لك مثالا كما أنك تتصل بأحدهم في مدينة أخرى أو دولة أخرى عبر الهاتف النقال، فأنا كذلك أتواصل مع أي شخص بالتخاطر دون الحاجة لذلك الجهاز.

استغربت من قوله، التواصل بالهاتف النقال يحتاج إلى موجات وإلى وسط ناقل ومستقبل، وإلى شفرة خاصة، فكيف يكون كل ذلك فقط بالروح دون أي جهاز خارجي. وبقيت في حيرة من ذلك . وبعد سنة ٢٠٤٥ أي بعد مرور عشر سنوات، شاهدت شخصا أخر يحمل نفس الفكرة، وكأن هذا التخاطر قد أنتشر بين الأوساط الخاصة، وما زلت لا

أتقنه ولا أعرف كيفيته ولست أعرف أحدا يعرفه الآن ونحن نعيش في سنة ٢٠٥٥ أي بعد عشرين سنة وأنا جاهل به. يا أبا كوثر ماذا تعرف عنه؟

سعيد: دعني أقدم لك مقدمة يا حاج، بعدما جرى ما جرى من طغيان المادية على عقول ونفوس البشرية جميعها وبفعل قوى الاستكبار العالمية وعلى رأسها أمريكا الشر المطلق في العالم والتي كانت مستحكمة في جميع القارات، الناس لم تجد جميع رغباتها في المادة وأخذت تسأم من جميع الأجهزة الإلكترونية والرقمية فأخذ بعض الناس في تأسيس مدارس لتدريس علوم الطاقة والروح، وشيئا فشيئا تطورت هذه المدارس لتكون جامعات علمية ومراكز مرموقة بإشراف أساتذة متمرسين، وهم يدرسون الطلاب تلك العلوم الغريبة والتي تخرجك عن حدود المادة، وهم ينتشرون في جميع العالم، وأخيرا أسست جامعات في العراق وبصورة رئيسية في المحافظات الجنوبية، ولعلك في سنة ٢٠٣٥ ألتقيتَ بأحد هولاء الطلاب وهو يعرف بعض تلك العلوم وأراد أن يعلمك بشيء من ذلك وذكر لك التخاطر كمثال على هذه العلوم.

العجوز: ليتني أدركت ذلك في ذلك الحين، لكنت الآن اتخاطر معكم ومع من أحب، يا للروعة...

هذه كله سمعته وقد رواه سعيد لزوجته سعاد بعدما رجعوا، ويبدو أني غابت عني جميع تفاصيل رحلتهم بسبب النوم الذي هو ملاذي، وقد جال في بالي: إذا كان هناك ما يسمى بالتخاطر عن بعد، فلماذا لا

أستخدمه أنا لأكلم أحدهم ولأشرح له حالتي وما أعيشه في هذا الظلام الدامس عسى أن يشرح لي شيئا بسببه أخرج من هنا لأرى عالم النور وعالم الناس، فقد طال مكثي هنا.

وسمعت سعيد يخاطب زوجته: بالمناسبة يا سعاد أنت كالهلال، وقد ذكرتني برواية حفظتها قديما؟

سعاد: وما الرواية يا أبا كوثر ؟

سعيد: الرواية كما جاءت عن **داود الكرخي قال: قلت لأبي عبد الله الصادق عليه السلام: إن صاحبتي هلكت وكانت لي موافقة وقد هممت أن أتزوج، فقال: أنظر أين تضع نفسك ومن تشركه في مالك وتطلعه على دينك وسرك وأمانتك، فإن كنت لا بد فاعلا فبكرا تنسب إلى الخير وإلى حسن الخلق.**

ألا أن النساء خلقن شتـى   فمنهـن الغنيمة والغـرام

ومنهــن الهلال إذا تجلى   لصاحبه ومنهن الظـلام

فمن يظفر بصالحتهن يسعد   ومن يغبن فليس له انتظام

وهن ثلاث: فامرأة ولود، ودود تعين زوجها على دهره وتساعده على دنياه وآخرته ولا تعين الدهر عليه. وامرأة عقيم لا ذات جمال ولا خُلق ولا تعين زوجها على خير. وامرأة صخابة، ولاجة، همازة، تستقيل الكثير ولا تقبل اليسير.

سعاد أنتِ الهلال وأنت الولود.

سعاد: يبدو أن تريد شيئا، قل لا تستحي.

سعيد: هذه ليلة مباركة وجيدة وهي جديرة بالمعانقة.

سعاد: نعم لك ذلك، بشرط.

سعيد: ما هي الشرط إني أقبله؟

سعاد: كما ذكرت لي رواية، سأذكر لك رواية تلوتها على مسامعي في ليلة العرس، وأنت تنقلها عن كتاب مكارم الأخلاق للطبرسي، فما تقول؟

سعيد: أذكريها وبعدها تكون المعانقة بطعم الرواية.

سعاد: الرواية مختصرة: **قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: يا علي لا تجامع أمرتك في أول الشهر ووسطه وآخره، فإن الجنون والجذام والخبل يسرع إليها وإلى ولدها. يا علي: لا تجامع أمرأتك بعد الظهر، فإنه إن قضي بينكما ولد في ذلك الوقت يكون أحول، والشيطان يفرح بالحول في الإنسان. يا علي: لا تتكلم عند الجماع، فإنه إن قضي بينكما ولد لا يؤمن أن يكون أخرس. ولا ينظرنّ أحد في فرج امرأته وليغض بصره عند الجماع، فإن النظر إلى الفرج يورث العمى، يعني في الولد. يا علي: لا تجامع امرألك بشهوة امرأة غيرك، فإني أخشى إن قضي بينكما ولد أن يكون**

مخنثا مخبلا. يا علي: من كان جنبا في الفراش مع امرأته فلا يقرأ القران، فإني أخشى عليهما أن تنزل نار من السماء فتحرقهما. يا علي: لا تجامع امرأتك إلا ومعك خرقة ولا تمسحا بخرقة واحدة فتقع الشهوة على الشهوة، فإن ذلك يعقب العداوة بينكما، ثم يؤديكما إلى الفراق والطلاق. يا علي: لا تجامع امرأتك من قيام، فإن ذلك من فعل الحمير، وإن قضي بينكما ولد كان بوالا في الفراش كالحمير تبول في كل مكان. يا علي: لا تجامع امرأتك في ليلة الفطر، فإن قضي بينكما ولد لم يكن ذلك الولد إلا كثير الشر. يا علي: لا تجامع امرأتك في ليلة الأضحى، فإنه إن قضي بينكما ولد يكون ذا ستة أصابع أو أربعة. يا علي: لا تجامع امرأتك تحت شجرة مثمرة، فإنه إن قضي بينكما ولد يكون جلادا أو قتالا أو عرّيفا. يا علي: لا تجامع امرأتك في وجه الشمس وشعاعها إلا أن يرخى ستر فيستركما، فإنه قضي بينكما ولد لا يزال في بؤس حتى يموت. يا علي: لا تجامع امرأتك بين الأذان والإقامة، فإنه إن قضي بينكما ولد يكون حريصا على إهراق الدماء. يا علي: إذا حملت أمرأتك فلا تجامعها إلا وأنت على وضوء، فإنه أن قضي بينكما ولد يكون أعمى القلب، بخيل اليد. يا علي: لا تجامع أهلك في ليلة النصف من شعبان، فإنه إن قضي بينكما ولد يكون مشوها ذا شامة في شعره ووجهه. يا علي: لا تجامع أهلك في آخر الشهر إذا بقي منه يومان، فإنه إن قضي بينكما ولد يكون عشارا أو عوانا للظالم

ويكون هلاك فئام من الناس على يده. يا علي: لا تجامع أهلك على سقوف البنيان، فإنه إن قضي بينكما ولد يكون منافقا مرائيا مبتدعا. يا علي: ؑذا خرجت في سفر فلا تجامع أهلك تلك الليلة، فإنه إن قضي بينكما ولد ينفق أمواله في غير حق. وقرأ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إن المبذرين كانوا أخوان الشياطين. يا علي: لا تجامع أهلك إذا خرجت في سفر مسيرة ثلاثة أيام ولياليهن، فإنه أن قضي بينكما ولد يكون عونا لكل ظالم. يا علي: وعليك بالجماع ليلة الأثنين، فإنه أن قضي بينكما ولد يكون حافظا لكتاب الله، راضيا بما قسم الله عز و جل له. يا علي: إن جامعت أهلك في ليلة الثلاثاء فقضي بينكما ولد فإنه يرزق الشهادة بعد شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ولا يعذبه الله مع المشركين ويكون طيب النكهة من الفم، رحيم القلب، سخي اليد، طاهر اللسان من الغيبة والكذب والبهتان. يا علي: وإن جامعت أهلك ليلة الخميس فقضي بينكما ولد يكون حاكما من الحكام أو عالما من العلماء. يا علي: وإن جامعتها يوم الخميس عند زوال الشمس عن كبد السماء فقضي بينكما ولد فإن الشيطان لا يقربه حتى يشيب ويكون فهما. ويرزقه الله عز و جل السلامة في الدين والدنيا. يا علي: وإن جامعتها ليلة الجمعة وكان بينكما ولد فإنه يكون خطيبا قوالا مفوها. وإن جامعتها يوم الجمعة بعد العصر فقضي بينكما ولد فإنه يكون معروفا، مشهورا، وإن جامعتها في ليلة الجمعة بعد العشاء الآخرة

فإنه يرتجى أن يكون لك ولد من الأبدال إن شاء الله تعالى. يا علي: لا تجامع أهلك في أول ساعة من الليل، فإنه أن قضي بينكما ولد لا يؤمن أن يكون ساحرا مؤثرا للدنيا على الآخرة. يا علي: احفظ وصيتي هذه كما حفظتها عن أخي جبريل عليه السلام.

سعيد: نعم، أذكر أني قرأتها عليكِ، ولكن عقبت بقولي: أنها رواية إرشادية وليس إلزامية، ومع ذلك فإن الآن على وضوء وهذه الليلة ليلة الأثنين، وقد نزعت ثيابي وهيأت حالي...

سعاد: لك الحق وصرت ملزمة بذلك، لكن هون عليك وبرفق، فإنا حامل كما تعلم.

سمعت كل هذا الحوار وأزداد ذهولي، فقد ذكرا في حديثهما كلام ليس من سنخ كلامهم وهو (إن المبذرين كانوا أخوان الشياطين) كما أنهما ذكرا أسماء كان لها وجود في ذهني ذكرا الإمام الصادق ورسول الله وعلي، هذه الأسماء تختلف عن أسمائهم كثيرا، كما إن كلامهم له إيقاع خاص ونمط مغاير وكأنه قريب ذلك الكلام الذي ليس من سنخ كلامهم.

وبعد هذا كله فهم يتكلمون عن الجماع ؟

ما هو وكيف يكون وما فائدته ؟

وهل هو ضروري جدا كما هو الحال في الغذاء والماء ؟

وماذا يعنون بذلك الحديث الطويل والوصية ؟

ثم لماذا نزع سعيد ثيابه ؟

أهو يشبهني ليبقى عاري، فأنا هنا عاري دون أي ملابس منذ وجدت نفسي ؟

وبعد هذا كله ماذا تعني سعاد بأنها حامل؟

ماذا تحمل ؟

وأين تحمل ذلك الشيء ؟

يبدو أن الحيرة ستحكم مخالبها عليّ وستخنقني، ماذا أفعل الآن يا إلهي، أهلا أيها النوم لقد افتقدتك ما إن تذهب عني حتى تنهال عليّ الأصوات من كل حدب وصوب، مرحبا بك، دعنا ننام معا.

غطيت بالنوم ولم أرَ أي شيء في المنام فقط فضاء شاسع دون أي أشخاص، هل أنا مسجون في النوم كذلك؟ هولاء الذين في عالم النور وعالم الناس يرون أشياءً كثيرة في المنام... سأغادر النوم لأنه أصبح مملا أيضا.

سعاد: نعم يا كوثر ؟

كوثر: أماه لماذا أنت مستيقظة منذ الفجر؟

سعاد: بنيه أني أقرأ لأني لدي امتحان في مادة التفسير صباحا الساعة الحادية عشر، فهذا يوم الثلاثاء وهو الموعد الأسبوعي للدوام عن بعد في جامعة بغداد، وبعدما أكملنا منهج التفسير، قرر الدكتور حسن أن نمتحن في هذا اليوم، لذلك استيقظت مبكرا لكي أستعد للامتحان، وأنا قرأت الموضوعات أمس وأراجعها، وبقي لدي موضوع عندما يرجع أبوك يوضحه لي.

كوثر: وما الموضوع الذي تبقى ؟

سعاد: إنه التفسير الباطني مع إيراد أمثله، فقد تأخرت عن مشاهدة المحاضرة، لأني أنشغلت في إعداد الطعام...

كوثر: أمي هذا اليوم تنشغلين بالامتحان، فكيف بالغداء؟

سعاد: بنيه سنتصل بالمطعم وسيرسل لنا وجبة الغداء، وسنحول له الأموال عن طريق الكارت لأننا أخذنا رقمهم منذ زمن...

حسنا، يا أمي سأقرأ أنا أيضا وبعد الفطور، سأنتظر باص المدرسة عند الباب، لأن الجو اليوم لطيف وفيه هواء نقي وأشعة الشمس الذهبية لأستمتع بذلك قبل الدرس الأول وتأتينا الدكتورة هند وسيكون درسنا اليوم عن منصوبات الأسماء.

أنا أسمع كل ذلك وقد جال في خاطري سؤال: ماذا تعني بالتفسير الباطني؟

وإذا كان هناك تفسير باطني، فهذا يعني أن هناك تفسير ظاهري، ولكن أليس الكلام واضحا وأنا أسمعه وأفهمه فلماذا يحتاجون إلى تفسير...أنه تراكم الأسئلة وبدون جدوى، ولعلي أن أنصت بتمعن سأفهم التفسير لأن سعاد عندما تراجع للامتحان تقرأ بصوت عالٍ حتى تحفظ بسرعة وسأفهم منها ما تقول، وعندما يأتي سعيد ويشرح لها التفسير الباطني مع الأمثلة سأفهمه أيضا.

سمعت سعاد وهي تقرأ : (**والشمس وضحاها والقمر إذا تلاها والنهار إذا جلاها والليل إذا يغشاها والسماء وما بناها والأرض وما طحاها ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها كذبت ثمود بطغواها إذ أنبعث أشقاها فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذبهم فسواها ولا يخاف عقباها**) إن هذا الكلام هو من سنخ الكلام الذي سمعته من سعاد عندما صلت الفجر مع ابنتها كوثر، وهذا عالي المستوى متناسق ذو مدلول عالي كما إن له نغم خاص وموسيقى جذابة، وأنا أوافق سعاد على تفسير هذا الكلام لأن بعض المفردات في هذا النص لم يستخدمها سعيد أسرته، نعم هناك كلمات أسمعها بكثرة منهم مثل : (الشمس، القمر، النهار، الليل، السماء، الأرض، رسول الله، رب) ولكن هناك كلمات لم أسمعها منهم ولمن أفهمها مثل: (جلاها، طحاها، فجور، تقوى، دس، ثمود، طغواها، أشقاها، عقروها ، دمدم، ذنوب، عقبى).

أنا حبيس في هذا المكان المظلم، صحيح أن الماء والغذاء يأتيني جاهزا، لكني لا أستطيع التخاطر عن بعد حتى يسمعوني، ولا أستطيع الدراسة عن بعد حتى أفهم ذلك الكلام الذي يختلف عن سنخ كلامهم.

يا إلهي ليتني عالم بتلك العلوم حتى أفهم الكثير عن عالم النور وعالم الناس.

يا إلهي هل أبقى هنا حيث لا أدري أين أنا، هل أبقى بدون رؤية تلك الشمس والقمر والليل والنهار والسماء والأرض ورسول الله ؟

يا إلهي أن كنت لا أستطيع الخروج من هنا، فهب لي قدرة على التواصل مع أولئك الناس حتى يشعروا بوجودي، فأنا اسمعهم فقط دون رؤيتهم وهم لا يسمعوني ولا يروني.

يا إلهي أنا في عالم الظلام وهم في عالم النور، ومع ذلك أفهم كلامهم، فلا تفرق بيننا عندك يا رب.

جرت هذه المناجاة بيني وبين الله، وقد شرد ذهني عن سعاد وتفسيرها لذلك الكلام، فخسرت تلك الفرصة الذهبية التي قد لا أعوض بمثلها بعد ذلك، وكفارة عن ذلك سأنصت بدقة وبتفكر للتفسير الباطني الذي سيشرحه سعيد، سأنتظره على الجمر، إني متشوق لذلك كشوقي لخروجي من هنا. سأنتظر بصمت دون مناجاة وحديث النفس فقد يخفى عليّ الصوت بسبب غفلتي.

سعيد: أين أنتِ يا سعاد؟

لقد جاء سعيد، لا أتكلم أبدا أبدا...

سعاد: أنا هنا يا أبا كوثر، في غرفة الدراسة، تعال فقد أكملت التفسير الظاهري، وأنا في انتظارك.

سعيد: إني الآن أكملت الدرس في الصف الخامس الإعدادي والحمد لله اليوم عندي حصتين فقد، أما الأيام الأخرى فتكون بين حصتين وثلاث فقط.

سعاد: أأعد لك الشاي أم آتيك ببعض العصائر؟

سعيد: لا أريد شيئا فقد اكتفيت.

سعاد: إذا كان كذلك، فبين لي معنى التفسير الظاهري، وأمثلته، فأنت قد درستموه في المرحلة الأولى للبكالوريوس.

سعيد: نعم، والحمد لله أني لم أنسَ منه شيئا.

التفسير الباطني يراد به فهم النص القرآني بعيدا عن ظاهر النص، مع الاعتماد على الذوق العرفاني والروائي وهو من نتاج الفهم الصوفي والعرفاني للنص، ولهذا بقي تناوله محصورا وقليلا لأنه فيه غوص باطني لا يعطى إلا لمن زكى نفسه وتجرد عن المادة وعرجت نفسه في سماء الكمال وأفنى نفسه في الله وأهل البيت عليهم السلام وتشربت روحه في روايات أهل البيت ونصوصهم وله باع طويل في فهم معاريض كلامهم.

والأمثلة عن التفسير الباطني كثيرة سأذكر لك خمسة أمثلة حتى تحفظيها وتجيبي عنها في الامتحان:

المثال الأول: قوله تعالى : (**وإني مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون فلما جاء سليمان قال أتمدونن بمال فما آتاني الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون**)

الفهم الظاهري لهذه الآية أن سليمان عليه السلام كان يمثل الحاكم الناصح لبلده وربه ولم يجعل لعقيدته وولائه لوطنه ثمن هدية كانت أو غيرها، هكذا هو أسلوب الطغاة ومن ملكتهم أنفسهم الأمارة بالسوء يحاولون شراء الذمم كما فعلت بلقيس مع النبي سليمان.

الفهم الباطني للآية أن بلقيس هي النفس الأمارة بالسوء والنفوس تملك أصحابها وسليمان هو العقل على اعتبار لكل فرد نبي باطن وسليمان يدعو للتوحيد وبلقيس ترفض ذلك تعبد الشمس من دون الله، فحينما دعاها سليمان إلى بسم الله الرحمن الرحيم هي إشارة للتوحيد. والهدية من خدع النفس ومكرها إلا أن سليمان أو العقل كان ملتفت لذلك ولم يبدل نعمة الله بهدية مشبوهة.

المثال الثاني: قوله تعالى: (**قال رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين**)

التفسير الظاهري للآية أن النبي يوسف عليه السلام بعدما قطعن النسوة أيدهن وشغفن به حبا ولكي ينجو منهن دعا الله تعالى أن يسجن خير له من أن يكون مع هذه النسوة و وطلب من الله تعالى أن يصرف كيد النساء عنه فإن تركه الله تعالى طرفة عين يصبو إليهم وعندها يكون من الجاهلين.

التفسير الباطني لهذه الآية أن النبي يوسف طلب السجن ليبدأ بنفسه ويصلحها قبل أن يبدأ بغيرها، بعد أن مكث فترة طويلة في قصر عزيز مصر ولم يؤثر فيهم النصح، رأى أن أهل السجن أسرع استجابة من غيرهم في اصلاح نفوسهم فهم بعيدون عن زخارف الدنيا لذلك هم أكثر تهيأة من غيرهم للكمال والنبي يوسف بحاجة إلى ناس مخلصين. وبذلك يكون السجن معنوي وكيدهن إشارة للنفس ولا تقتصر على المرأة، فيكون المساجين في سجن معنوي بعيدا عن النفس وبذلك فهم في مرحلة التكامل، وطلب يوسف المكوث معها ليتكامل ويكون المرشد لهم والذي يختصر عليهم الطريق والزمن.

المثال الثالث: قال تعالى: (**من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها**)

التفسير الظاهري أن الإنسان إذا عمل عملا صالح وجاء بحسنة فإن الله يضاعف ثوابها لعشرة أمثالها، كرما منه ومنّة منه على الناس أجمعين.

التفسير الباطني أن الحسنة يراد بها ولاية أهل البيت عليهم السلام فولايتهم سبب لقبول الطاعات ومضاعفة أجرها عند الله تعالى.

المثال الرابع: قوله تعالى: (**والشمس وضحاها**)

التفسير الظاهري أن الله تعالى يقسم بهذه الشمس التي خلقها جرما سماويا يضيء الدنيا وتنتشر أشعتها على أرجاء المعمورة وبذلك تكون سببا في الحياة على الكائنات النباتية وما يتشكل من ذلك من سلسلة في تصنيف الكائنات، ووقت الضحى تكون الشمس ساطعة ومتوهجة بوضوح وهو وقت النشاط .

التفسير الباطني كما ذكره السيد الشهيد محمد الصدر أن الشمس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وضحاها هدايته ورحمته لجميع البشر وفضله على جميع الموجودات.

المثال الخامس والأخير: قوله تعالى: (**والنازعات غرقا**)

التفسير الظاهري أن الملائكة هم الذين ينزعون أرواح الكفار من أجسادهم بشده والله تعالى أقسم بهؤلاء الملائكة حتى يبين الشدة التي يتعرض لها الكفار محذرا إياهم.

التفسير الباطني فمن ذلك نزع العداوة من القلب التي غرق فيها القلب وكانت العداوة راسخة ونظير ذلك نزعنا ما في صدورهم من غل.

وبعد تمام هذه الأمثلة أضيف لكِ شيئا يا سعاد وهو التداخل قد يحصل بين تأويل القران وباطن القران إذا علمنا أن لكل باطن باطنا آخرا حتى يكون سبعين باطنا وبذلك تكون الآية الواحدة مع تفسيرها تحتمل بواطن كثيرة يعبر عن أحدها بالتأويل، ولكي تكون لديكِ خبرة في ذلك فراجعي كتاب منة المنان في الدفاع عن القران للسيد الشهيد محمد الصدر والذي تفصلنا عن استشهاده ست وخمسون سنة فقد توفي في سنة ١٩٩٩ ونحن الآن في سنة ٢٠٥٥

سعاد: لقد أشعلت نار الاطلاع لديه فكم كنت منشغلة بأمور ثانوية وكنت أظن القران ظاهرا وباطنا فحسب فتبين أنه بحر عميق وليس له ساحل، ولكي لا أنسى فأنا لدي امتحان بعدما كتبت الأمثلة وما اتحفتني به حتى أحصل على درجة عالية في الامتحان، ولست أدري هل كانت محاضرة دكتور حسن بهذا التفصل لأني لم أشاهدها.

أنا كنت في شغف لسماع الحوار فكيف بي وأنا لم أفهم التفسير، ولكن في المثال الأول عندما العقل والنفس.

فهل أنا أفهم كل ما أسمع بعقلي فحسب، والذي يدفعني للخروج من هذا المكان المبهم هي نفس؟

ربما سأبقى محبوسا في نفسي حتى يأذن الله، ومثال السجن والنبي يوسف قد أعجبني جدا فربما أنا هنا في هذا السجن المعنوي لكي أتكامل وأبتعد عن عالم النور وعالم الناس والذي يقل أو ينعدم فيه

التكامل لديّ، المثال الثالث زادني شحنة و قد تملكني حب أهل البيت عليهم السلام فأنا هنا ليس لي أي حسنة أفعلها سوى النوم، ولعل النوم على محبتهم حسنة وتضاعف عشر أمثالها يا للروعة، ومثال الشمس المضيئة بنور رسول الله الذي سمعن وصية لعلي وهو يرشده عن آداب النكاح، ما أعظمه من مرشد وملهم، يا لعبقرتيه أن يوصف بالشمس وضحاها. والمثال الخامس وإن كان يتكلم عن الملائكة وعن نزع الأرواح والغل، أنا هنا روح أليس كذلك؟

أنا روح وعقل ونفس ولكن لا يوجد عندي غل حتى تنزعه تلك الملائكة، الحمد لله أنا بمأمن منهم فقد يكونون شديدين وليس لي سبيل لدفعهم وأنا في هذا القعر.

يبدو أن هذا التفكير أخذ من وقتي الكثير فأنا أفكر من زمن، سأستمع لصوت كوثر مع أبيها سعيد، عسى أن تفك تلك الشفرات العالقة في ذهني والتي يزداد تعدادها بعد كل محاورة وليس لها رمز وحل أبدا.

كوثر: أبتاه دعني أقص عليك بعض المواقف التي مرت بي خلال هذا الأسبوع.

سعيد: نعم، فأنا أذن صاغية.

كوثر: قبل ثلاثة أيام عندما خرجت من المدرسة وأنا أنتظر الباص لتوصلني للمنزل، رأيت رجلا شيخا كبيرا واقفا على الرصيف كأنه يريد أن

يعبر ولكن هناك شيء يمنعه. فقلت: أذهب إليه لعله يحتاج مساعدة، وعندما أتيت إليه وسلمت عليه رد عليه السلام وهو ينصت لجميع الأصوات بتركيز، ففهمت من ذلك أنه أعمى. وعرفت سبب وقوفه عند الرصيف فهو ينتظر أن تهدأ الأصوات وتقف السيارات حتى يعبر الطريق. فقلت له يا جد: دعني آخذ بيدك ونعبر الطريق. قال: شكرا لكِ بنية، لعل الله أرسلكِ إليّ وعوضني عن أولادي. فعبرنا الطريق، وحطر في بالي أن أساله عن أولاده ولماذا هو بمفرده على الرغم من أنه أعمى. فسألته عن ذلك فقال: إن رجل تاجر وكانت الأموال تترا عليّ وقد أحسنت لجميع أولادي، أما بناتي فبعد أكمال دراستهن تزوجن، واحدة منهن في البصرة، والأخرى في حي الحسين، وأولادي: حسن تزوج وهاجر إلى تركيا، وحسين تزوج وهاجر ليكمل دراسة الدكتوراه وفلاح فهو الذي يدير التجارة معي، وأمهم ماتت، وبسبب حزني وكبر سني ضعف بصري وأصبت بالعمى، وأنشغل الجميع عني وبقيت أنا لوحدي أتكفل شؤوني وازدادت لديّ حاسة السمع فأصبحت أذني للسمع والرؤية، والآن كنت عند أحد أصدقائي لزيارته وسأرجع للبيت.

كوثر: لقد حزنت لسماع قصتك جد؟ وأعذرني أني ذكرتك بأيام الرخاء والآن أنت في شدة فإن البصر هو المحرك الأساسي للإنسان. فأجابني العجوز: لا تحزني يا بنية، فأن ليست وحدي كذلك، كل جنين يرقد في بطن أمه تسعة أشهر لا يرى شيئا، ونحن كنا جميعا كذلك، ولا ننسى أن هناك ٥٠ مليون شخص في العالم أعمى، وأنا واحد منهم.

أنا سمعت قصة العجوز الأعمى، فحمدت الله أني لست لوحدي أعيش هذه الشدة، ولكن هل أنا واحد من ٥٠ مليون في العالم، ولماذا هذا العجوز له أبناء وبنات وتجارة وأصدقاء ويمشي وأنا ليس لي أي شيء من ذلك، أنها شفرة جديدة تضاف لقائمة الشفرات، وأنا أسرح بخيالي أردت سماع المواقف الأخرى لكوثر، فقد تحل بعض مسائلي.

سعيد: نعم يا بنية موقف جيد وأبليتِ فيه حسنا، وساعد الله ذلك العجوز وجميع من فقد بصره. والآن أنقلي لي الموقف الآخر، فأنتِ قلت عدة مواقف وهذه كلمة تدل على الجمع وما ذكر إلا موقف واحد.

كوثر: نعم، يا أبتِ، الموقف الآخر حدث بيني وبين زميلتي جنان، فعندما زارتني للبيت للمراجعة للدروس، قالت فلنخرج ونشتري بعض القراطيس من المكتبة، وما أن ذهبنا وقد أخترنا بعض القراطيس الجميلة، وأعطيت صاحب المكتبة الكارت فكان قيمة قراطيسي ٢ دينار وبذلك حولها لرصيده، أما جنان فقد بحثت عن الكارت فلم تجده وتيقنت أنه قد وقع منها وهي لا تدري، عندها سألتها: هل تحفظين رقم الكارت؟ قالت: نعم. قلت: إذن سنذهب لبنك الرافدين، وعندما ردت جنان رقم الكارت لموظف البنك، قال: لقد بحثنا عنه عن طريق الشريحة التي فيها وبذلك فهو واقع في حي الكرامة في المحلة رقم ٢٠ في الزقاق ٥ في الدار ٧. فقلت له: يا عم أتعلم أن هذا الموقع هو موقع منزلنا فأنا أحفظه

جيدا. وعندما عدنا للدار أنا وجنان بحثنا في غرفة الدراسة فوجدنا الكارت تحت الكتاب المدرسي قواعد اللغة العربية.

سعيد: الحمد لله أنتما وجدتما الكارت، وقد ذكرتني بموقف مشابه عندما ضاع كارتي وذهب للمصرف، قالوا أنه واقع في شارع وأعطوني العنوان وعندما ذهبت وجدت أحدهم يمسكه وهو يريد أن يشتري به شيئا ولكن سوق السبر ماركت طلب منه رقم الكارت فلم يعرفه، وعندما ذكرت رقم الكارت وحولوا الرصيد أثبتت أنه ملكي وأنا من أعرف برقمه فقط.

كوثر: الموقف الأخير عندما كنا في قاعة الدراسة وكانت الدكتورة هند تدرسنا الأدب وأخذت تشرح قائلة: شاعر فيلسوف ولغوي وأديب عاش في العصر العباسي، ولد وتوفي في معرة النعمان في الشمال السوري، وقد فقد بصره في الرابعة من عمره نتيجة مرض الجدري، وعوضه الله بحدة الذكاء وقوة الذاكرة وشدة الانتباه ، وقد درس في حلب وأنطاكيه وغيرها فدرس الحديث والتفسير والحديث والفقه والشعر وتعمق في الفلسفة وخاصة اليونانية والهندية ووصف بأنه الشاعر الأديب فقد قال الشعر وهو في الحادية عشر من عمره. و له ديوان بعنوان (سقط الزند) وديوان أخر وقد التزم فيه بما لا يلزمه نظام القوافي وسماه (اللزوميات)، وله (رسالة الغفران) والذي صوّر فيها الشاعر ذهابه للجنة ورؤيته للشعراء الجاهليين، وتميزت بالاستطراد والفلسفة العميقة والبلاغة المذهلة. ولم يتزوج وكان يرى أن انجاب الأطفال هو جناية من

الأهل عليهم، لذا أوصى أن يكتب على قبره (هذا ما جناه أبي عليّ، وما جنيته على أحد). عاش معتزلا في داره وأنه رهين الحبوس ولم يلبس إلا الخشن وتوفي سنة ٤٤٩ هجرية ودفن في منزله بمعرة النعمان.

بعدما أكملت الدكتورة ذلك سألت سؤال: من هو هذا الشاعر ؟

فأجبت أنا دون سواي من الطالبات: دكتورة أنه الشاعر أبو العلاء المعري فيلسوف الشعراء.

فقالت: أحسنتِ يا كوثر، ولكن كيف أصبح كذلك وهو أعمى.

قلت لها: دكتورة من فقد نعمة البصر يعوضه الله بنعم أخرى، وسردت لها قصتي مع الرجل العجوز الذي عبّرته الطريق.

سعيد: بوركتِ بنية، لقد ربطتي بين الموقف الأول وهذا الدرس، وهذا ما يجب أن نتعلمه وأن نربط الواقع الخارجي بالتأريخ وبالحاضر والمستقبل. رغم أن الفارق شاسع بين أبي العلاء المعري و ذلك العجوز فالعجوز متفائل، وأبو العلاء المعري كان من أكثر الكّتاب تشاؤما وكرها للحياة، وهو واحد من الثلاثة المتشائمين : آرثر شوبنهاور الفيلسوف الألماني، وأميل سيوران الأديب الروماني.

ومع أنه أعمى إلا أنه يصف بدقة من ذلك عندما وصف شمعة قائلا:

وصفراءِ لون التبر مثلي جليدة

على نـوب الأيام والعيشـة الضـنك

تريك ابتساما دائما وتجلــدا

وصبرا على ما نابها وهــي في الهلك

لو نطقـت يوما لقالت أظنكم

تخالون أني من حذار الردى أبكي

فلا تحسبوا دمعي لوجدٍ وجدته

فقد تدمع الأحداق من كثرة الضحك

أنا أسمعتُ تلك المواقف كلها، ولكن موقف المعري قد أثر فيّ فهذا الرجل أعمى منذ الرابعة من عمره وهو مع ذلك شاعر وفيلسوف وكاتب، رغم أنه متشائم. أنا هنا أعمى مثله وحبيس كما هو حبيس، وقد عوضني الله بالسمع فها أنا أسمع جميع الأصوات، والمعري بارع في الوصف كما وصف الشمعة التي ذكرها سعيد، أنا منذ أول يوم هنا ألم أعرف شكل سعيد وزوجته سعاد وبنته كوثر، ولم أعرف شكل دارهم ولا الشارع ولا مزرعة جدهم في ذي قار، ولا الكارت التي يتعاملون به، ولا الحكومة التي تحدث عنها سعيد مع السائق، ولا المدرسة ولا الجامعة، والأشد من ذلك لست أعرف طريقة للتواصل معهم، أما المعري فقد تواصل مع الناس عند دراسته. يبقى أمر قد أجد له سبيلا وسأفكر به

وهو أن المعري قد صعد للسماء ووجد الشعراء الجاهليين في الجنة، فهل يمكن لي أن أكون كذلك فأخرج من هذا العالم المظلم وألتقي بناس في عالم النور؟ لست أدري أنه أمر صعب للغاية، بل التفكير فيه صعب كذلك. يا إلهي لست أريد شيئا سوى ما تراه مناسبا سأبقى هنا في هذا القعر المظلم إلى أن تأذن لي بالخروج.

والسؤال الأهم أنهم يتكلمون عن الأشخاص ويحددون لهم أعمارا بالسنين، فما هي السنين؟

وممَ تتكون؟

ولماذا يقدرون لكل شخص عمرا؟

وكيف يحسبون تلك السنين؟

وأنا هنا كم عمري؟

وهل يحسب عمري هنا بالسنين؟

ثم أن أبا العلاء المعري مات بعد ذلك؟

فما هو الموت؟

وأين يذهب من يموت؟

وهل هناك حياة وعمر محدد وأكل وشرب ونوم؟

جالت في بالي كل تلك التساؤلات، وليس لها أي جواب، والنوم هنا أصبح صديقي، وجزاه الله خيرا، فهو الوحيد الذي يزورني باستمرار، ويتفقدني، مع كونه صامتا دوما ولا ينطق ببنت شفه، يأتي بصمت وتمدد معي ويرحل بصمت، ولذلك سأخلد إليه عسى أن أفيق على حوار أخر أجد فيه منفعة ورفع لتلك الأحجيات التي غزت عقلي وباتت في رأسي.

نمت وكالعادة لم أرَ في نومي أي أحد أو أي شيء فقط مكان أجلس فيه، والفرق عن يقظتي هو أن المكان هنا لست مقيدا فيه ويتضمن أيضا بصيص من الضياء، ولم يطل المكث هنا، حتى ترنح في أذني صوت كوثر تحدث أمها سعاد: أماه عصرا عندما جاء علي صديق أبي وجلسا ساعة في غرفة الاستراحة، وقد قدمت لهما الشاي، وجلست معهما وسمعت حديثهما، وقد اتحفاني بالمعلومات عن الغرب ونظرتهم للعرب ودينهم وسأذكر لك بعض ما قالاه في ذلك.

قال أبي: إن الغرب ينظر للعرب بأنهم أهل حرب فقط وتبقى حروبهم مستعرة لسنوات، لذلك قال جرترودبل: كم ألفا من السنوات بقيت هذه الحالة من الوجود سيخبرنا أولئك الذين سيقرؤون أقدام سجلات الصحراء الداخلية، ذلك أنها تعود إلى أوله، لكن العربي عبر القرون كلها لم يشترك حكمة من التجربة، فهو غير آمن أبدا، ومع ذلك فأنه يتصرف وكأن الأمان خبزه اليومي.

علي: نعم يا أبا كوثر، ليس هذا فحسب بل اسمع ما قاله تي إي لورنيس: لقد استهوى العربي خيالي، إنها الحضارة القديمة، القديمة التي

صفّت نفسها إلى درجة النقاء من الآلهة البيتية المألوفة، ومن نصف الزخرفات التي تهرع حضارتنا لادعائها وتبنيها، إن إنجيل العراء في المادة لإنجيل خيّر، وهو يشبك فيما يبدو نمطا من العراء الأخلاقي أيضا. أنهم يفكرون للحظة الحاضرة، ويسعون إلى الانزلاق عبر الحياة دون أن يدوروا حول منعطفات أو يتسلقوا هضابا وذلك جزئيا ارهاق عقلي وأخلاقي، عرق منهك ومن أجل تجنب الصعوبات فإن عليهم أن يطرحوا الكثير مما نحن مشرفا وخطيرا ورغم ذلك ومن دون أن أشاركهم وجهة نظرهم بأي شيء فأن أعتقد أنني أفهمها بما يكفي لكي أرى نفسي والأجانب الأخرين من وجهتهم ودون أن أشجعها أنا دارك أنني غريب بالنسبة لهم، وسأبقى غريبا لكنني لا أستطيع أن أومن بأنهم أسوأ بأكثر مما أستطيع أن أغيّر طرقي لأتبنى طرقهم.

أبي: أنهم يعدون العربي متأثر بيئته الصحراوية فقط ولذلك لا يتطور تفكيرهم، وهذا ما يؤيده قول سميث: إن المسافر العربي مختلف عنا. فجهد الانتقال من مكان إلى مكان بالنسبة إليه إزعاج صرف، وهو لا يشعر بمتعة في بذل الجهد كما نشعر نحن ويتذمر من الجوع والتعب بكل قواه كما لا نفعل نحن. وليس في وسعك أن تقنع شرقي أبدا أنك حين تترجل عن راحلتك قد تكون لديك أي رغبة أخرى سوى أن تجلس القرفصاء على بساط فورا وتستريح، تدخن وتشرب. وعلاوة فالعربي قليل التأثر بالمناظر الطبيعية أما نحن فتأثرنا بها عميق.

علي: بل ذهبوا إلى أكثر من ذلك بأن العربي غير قادر على الثورة وإدارة السياسة والاقتصاد وأن حدث شيء من ذلك سيكون محدودا، لذلك قال فاتكيونس: يكمن المصدر الرئيسي للنزاع السياسي والثورة المحتملة في كثير من بلدان الشرق الأوسط، وكذلك في أفريقيا وآسيا اليوم في عجر ما يسمى الحركات والأنظمة الوطنية الجذرية عن تدبر، ده عنك حل المشكلات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية النابعة من الاستقلال... وإلى أن تستطيع دول الشرق الأوسط أن تسيطر على نشاطها الاقتصادي وتخلق أو تنتج تقنويتها الخاصة، فإن سبيلها إلى التجربة الثورية سيبقى محدودا ذلك أن عين الفصلات السياسية الضرورية للثورة لن تكون متوفرة.

أبي: أتدري يا أستاذ علي أنهم ثبطوا الثورات العربية، لأنها مستمدة من الدين الإسلام، وهم يشمئزون من الدين ويجعلونه إيفون الشعوب، وبهذا يعدون الحضارة القائمة على الدين حضارة سرعان ما تنهار ولا تكون قائمة بقوة، بل هي هشة وليس لها دعامة قوية تسندها، لذلك يعدون المسلمين عاجزين مثل معظم الشعوب المستعمرة، ومن ذلك مدرستهم التي تسمى المدرسة التنقيحية في الولايات المتحدة والتي تنظر إلى العصر الذهبي بأن الفضيلة لأمريكا وبذلك هي تغزو جميع الآثام والجرائم في العالم عمليا إلى المؤسسات الحاضرة في بلدهم. وقد قال لويس: فإن يعترف المرء بأن حضارة بأكملها يمكن أن تتخذ الدين ولاء أول لها أمر كبير. حتى أقتراف أمر كهذا يعتبر مسيئا لدى التحرريين

من أصحاب الرأي، الماثلين أبدا على استعداد لاتخاذ موقف حماية مظلل، باسم أولئك الذين يعتبرونهم تحت وصايتهم، وينعكس ذلك هذا الآن في العجز القائم سياسيا وصحافيا، وبحثيا على حد سواء، عن إدراك أهمية عامل الدين في الشؤون الحاضرة للعالم الإسلامي.

علي: أبا كوثر هولاء يوقعون أنفسهم في تناقضات، ففي الوقت الذي يقولون أن الدين عامل تهديم للحضارة، يقولون ذلك عن الدين الإسلام فحسب، أما الديانة المسيحية، فهي عندهم ديانة توقظ البشر وتنورهم، من ذلك قول شاتوبريان: لم تدر الحروب الصليبية حول إنقاذ كنيسة القيامة وحسب، بل دارت حول معرفة من الذي سينتصر على هذه الأرض: مذهب تعبدي هو عدو الحضارة، محبذا باطراد الجهل وذلك هو الإسلام طبعا وللطغيان وللعبودية أو مذهب تعبدي أدى إلى أن يوقظ في البشر المعاصرين عبقرية الزمن الغابر الحكيم وألغى العبودية الدنيئة.

بل أن هذا شاتوبريان قد اشتعلت عنده نار الأنا جاعلا من اليهودية هي الديانة التي توّلد المعجزات، فقال: حين يسافر المرء في اليهودية، يقبض على القلب أولا ملك هائل، لكنما حين ينتشر الفضاء أمام عينيك دون حدود، وأنت تعبر من مكان متوحد إلى مكان آخر متوحد، يبدأ الملل بالانقشاع تدريجيا، ويشعر المرء برعب، بدلا من أن يغرق الروح في السوداوية، يمنحها الشجاعة ويسمو بعبقرية المرء الأصلية. وتنجلي أشياء خارقة في كل جزء من أرض صنعتها المعجزات: الشمس اللاهبة، النسر المنجرد بإباء، شجرة التين العاقر، الشعر كله، ومشاهد

الكتاب المقدس كلها حاضرة هناك. وكل اسم مقفل على سر، وكل مغادرة تعلن المستقبل، وكل قمة تحتفظ في داخلها بنبرات نبي. لقد تحدث الرب نفسه عن هذه الشواطئ: تشهد مجاري السيول الجافة، والصخور المنغلقة، والقبور المفتوحة لهذه المعجزة، وتبدو الصحراء وكأنها ما تزال صماء، مصعوقة بالرعب، وبوسع المرء أن يقول أنها لم تستطيع بعد أن تكسر الصمت الذي حلّ منذ أن سمعت صوت السرمدي.

أبي: ومن تناقضاتهم أنهم يرمون الشرق بالتخلف في كل شيء إلا أنهم يرونه موطن ثري من الجنسية الأنثوية، ويجعلون أحلامهم تتناغم مع النساء الشرقيات لأنهم يرون الشرق موطنهم الأول. وكمثال على ذلك قول نرفال: يجب أن أتحد بفتاة شابقة نقية من هذه التربة المقدسة، التي هي وطننا الأول، يجب أن أستحم بينابيع الإنسانية المحيية، التي تدفق منها الشعر وإيمان أجدادنا وعقيدتهم... أود أن أعيش حياتي مثل رواية، وأنا أضع نفسي عن رغبة في موضع أحد هؤلاء الأبطال الأشداء الفاعلين الذين يودون ـ بأي ثمن ـ أن يخلقوا حولهم احتدامية دراما، حبكة من التعقيد والتشابك، وبكلمة واحدة، فعلا.

كوثر: أماه سمعت ذلك الحوار الشيق وما ذكره أبي وصديقه علي، ولكن فاتني قول أستاذ علي عن الحكومات وارتباطها بالديانات، واختلاف الحكومات على مدار التأريخ.

سعاد: بنية الحوار شيق وهو ينم على تواصل القراءة والاطلاع الموسع لأبيك ولصديقه الأستاذ علي، ولو طال بهم المقام و كنت جالسة معهم لسمعت الكثير الكثير.

وأنواع الحكومات التي أنشغلتِ عن معرفتها خلال حوارهما هي: المملكة، والدكتاتورية، والسلطنة، والجمهورية، والفدرالية، والديمقراطية، والتكنوقراطية، والحكومة العميقة، وحكومة الظل.

وكل هذه الحكومات فشلت في إسعاد البشرية ولو بتخفيف الألم والآه. فهذه الحكومات الغربية مع ما لها من صيت في الأعلام والصحف والمجلات و غير ذلك كلها لم توفر السعادة لشعوبها، فهناك الملايين من المشردين الذين يفترشون الأرض ويلتحفون السماء، وهناك الملايين من الناس يموتون جوعا، وهناك الملايين من الناس يموتون من المرض، وهناك الملايين من الناس يعانون الجهل والتخلف. ومع كل ذلك فقد كانت أمريكا ـ والحمد الله الذي أهلكها وذهبت لمزابل التأريخ ـ الرائدة في الديمقراطية ظاهرا والمستبدة بالدكتاتورية والظلام والحروب لجميع دول العالم، وقد عانى العراق منها الويلات خلال أحتلاهم سنة ٢٠٠٣ بذريعة أسقاط النظام الدكتاتوري لصدام حسين.

كوثر: أماه أنتِ أيضا لستِ دون أبي بالاطلاع.

سعاد: أقرأ و واستمع باستمرار للتقارير الوثائقية التي تنشرها القنوات الفضائية، والتي أشاهدها عبر الأنترنيت.

كل هذا الحوار بين سعيد وصديقه علي الذي نقلته كوثر قد سمعته بدقة ودهشت من ذلك، فما أوسع عالم النور وعالم الناس، أنه يحتوي ملايين ملايين الناس وكلهم يعيشون تحت وطأة الحكومات والديانات. وأولئك الغربيون مستبدون هم ودياناتهم المسيحية واليهودية. الحمد لله أني هنا في هذا المكان وأني مسلم واسمع كلام هولاء المسلمين.

كلام الغربيين التي دارت على لسان سعيد وصديقه يختلف في اللهجة والحوار والأنشاء عن كلام المسلمين هنا، فهم بكلامهم يستعلون ويرون لأنفسهم الصدارة في كل شيء. ثم أن أفكارهم تتصادم مع المنظومة الفكرية هنا، فهم يرون أنفسهم السبب في وجود الشعوب، وهم على العكس من ذلك فهم سبب شقاوة الشعوب ومأساتهم الدائمة.

مهلا سمعت سعاد تتكلم عن ملايين المشردين وملايين الجائعين وملايين المرضى، وأنا هنا لست مشردا، ولست جائعا فما زال الغذاء كعين الماء ينبثق من معدتي، وأنا هنا لست مريضا.

ولكن ما هو المرض؟

وماذا يصيب؟

أيصيب البدن أم الروح؟

ولماذا المرض يعتري البشر؟

ولماذا يموتون منه أن لم يزول عنهم؟

وكيف يصنعون علاجه؟

وإذا كان علاجه متوفرا، لماذا لا يعطونه للمرضى؟

هل الحكومات هي التي تصنع المرض؟

إذا كانت الحكومات تصنع المرض، فلماذا تصنع علاجه؟

لماذا أنا هنا بمأمن عن المرض؟

لقد كنت أظن أن سماع حوار البشر يزيل الغموض عما أعانيه هنا من كثرة الشفرات، والتي تطوقني من كل حدب وصوب، وإذا بالسماع يزيدها ويزيد تطوقها على عنقي، ولربما سيأتي اليوم الذي تخنقني.

يا إلهي أني لا أعرف جواب السؤال الجوهري وهو أين أنا؟ ربما معرفة الجواب يكون مفتاحا لحل جميع الأسئلة. إني أعرف أن الملاذ الوحيد لجواب هذه الشفرات هو مصاحبة صديقي النوم في سفرة مختصرة في ذلك العالم المغلق الذي يخلو من كل شيء، وهو خير لي من سماع الأصوات، إذ به لا تزاد الشفرات، هيا بنا أيها النوم.

ذهبت مع النوم وإذا بيّ في فضاء شاسع يخلو من أي شيء. وقد لاح لناظري من بعيد شجرة لعل تحتها ظل أستظل، فجديت السير فأنا هنا مع النوم لست مقيد القدمين واليدين، بل طليق وأمشي أينما أريد، مشيت ومشيت إلى أن دنوت من تلك الشجرة، وإذا تحتها شخص قد مدد رجليه واستلقى واضعا يديه على صدره وكأنه يعيش الحزن ويتفكر

في أمر، وله عينان واسعتان، وشعر أسود داكن، وله بشرة سمراء مشربة باحمرار. سلمت عليه بتحية الإسلام، فرد عليّ السلام، وقد جلس كأنه قد فرح باللقاء ولعله يريد الكلام لأنه ربما عاش الصمت كثيرا هنا. قلت له: من أين أنت؟

قال: لست أدري.

قلت: وما الذي جاء بك هنا؟

قال: جئت مصطحبا النوم، فكان نهاية مطافي هنا تحت الشجرة، أستلقي تحتها وأستظل بظلها، فقد تعبت من المشي في هذا الفضاء الشاسع.

قلت: وأين كنت قبل أن تأتي لعالم المنام.

قال: كنت في حجرة مظلمة، والظلام يحيط بيّ من كل جانب، وليس معي أي أحد، ولست أرى أحدا بعيني اللتين لم تفتحا هناك، إلا أني كنت أسمع الأصوات فحسب، وبين مدة وآخر يأتيني النوم وينقلني من ذلك العالم المظلم إلى هنا.

قلت: وماذا سمعت هناك من الأصوات؟

قال: سمعت صوت لرجل عجوز، وامرأة، وطفل، ونباح كلب، وصهيل الخيل، وزقزقة العصافير، وسمعت أصوات أخرى كصوت سيارة، وصوت عالٍ جدا فهمت أنه صوت طائرة، وأصوات كثيرة جدا جدا.

قلت: هل فهمت عن تلك الأصوات شيئا؟

قال: لم أفهم شيئا، سوى أنهم في عالم النور وعالم الناس، لديهم شمس وقمر، وعندهم ليل ونهار، وهم يعدون الوقت بالساعات، وكل يوم ٢٤ ساعة، وإذا اكتمل عندهم سبعة أيام سموه أسبوع، وإذا تمّ عندهم ٣٠ يوما سموه شهر، وإذا أكتمل عندهم ١٢ شهرا سموه سنة، وليس للسنين حصر، إلا أنهم يجعلون كل مئة سنة قرنا، وقد سمعت من بعض الأصوات أنهم في القرن الحادي والعشرين أي بعد ٢٠٠٠ سنة.

قلت: الآن عرفت تفاصيل الوقت الذي كنت في حيرة منه وبذلك انفكت أحدى الشفرات من بين مئات الشفرات، يا هذا أتعلم أنهم يعيشون في سنة ٢٠٥٥ أي في نصف القرن الحادي والعشرين. هل سمعت أصوات تفهم منها شيئا لدفع هذا الجهل الذي أنقض علينا كالصقر على فريسته وهو لا زال ينهش لحمها؟

قال: لقد سمعت محاورة بين شخصين، قال أحدهما أن أبي مات وهو يقولها بصوت حزين وحرقة قلب وقد أجهش صوته بالبكاء، وأخذ الآخر يبكي معه، ولم أفهم ما هو الموت، وأين يذهب من يموت، ولماذا يموت...

قلت: أنا أيضا سمعت مفردة الموت، ولكن لم أعرف ماذا تعني، وماذا سيحدث للميت؟ يا هذا هل سمعت صوت يخبر عن وجودنا في هذا العالم المظلم.

قال: سمعت صوت امرأة تتكلم مع دكتورة سمتها حنان، وقالت لها أن حملكِ الآن في الشهر الثامن، ولم يبقى لكِ لولادته سوى شهر واحد، فما عليك إلا بالالتزام بما أوصيتكِ حتى تحافظي على صحتكِ وصحته. سمعت تلك المحاورة ولم أعرف ماذا تحمل وماذا يعني أنها تلد في الشهر التاسع.

قلت: مهلا، أنا أيضا سمعت سعاد تخاطب زوجها سعيد وتقول بأنها حامل. ومع ذلك لم أعرف ماذا تحمل ومتى تضع ذلك الحمل. أنها حقا لمشكلة يجب حلها، لأنه هذه الشفرة هي التي تمثل الحل الرئيسي لمعرفة المكان المظلم، وفلسفة سماع تلك الأصوات.

بينما أنا تحت الشجرة مع الشخص وإذا بالنوم يذهب واستيقظت على سماع صوت سعاد وهي تكلم سعيدا: ماذا تفعل؟

سعيد: إن أدقق لغويا بحث الأستاذ عادل؟

سعاد: وماذا يبحث؟

سعيد: أنه يبحث عن الحكومات والمجتمع العراقي بين سنتي ٢٠٠٣ وسنة ٢٠٢٠، وهو بعنوان (العراق بين سنة ٢٠٠٣ وسنة ٢٠٢٠ دراسة تاريخية وسياسية).

سعاد: أنه موضوع مهم جدا ويمثل العصب الرئيسي لتأريخنا المعاصر، ولكن يا سعيد هلا تقرأ لي ما كتبه الأستاذ عادل حتى أرى

قدرتي في اللغة العربية، فلا تنسى أنا طالبة في جامعة بغداد في كلية التربية، وقسمي اللغة العربية يختص بهذه الموضوعات...

سعيد: أن كان كذلك فعليكِ أن تسمعي ذلك جيدا. قال سعيد في ملخص المبحث الأول وهو بعنوان (النظام السياسي في العراق بين سنة ٢٠٠٣ وسنة ٢٠٢٠): أن النظام السياسي الذي قام بعد نظام صدام الدكتاتوري هو نظام ديمقراطي قائم على حكم الشعب نفسه بنفسه، عبر انتخاب نواب يمثلونهم في البرلمان والذي كان تعدادهم ٣٢٩ نائبا، مع وجود الرئاسات الثلاثة: رئاسة الجمهورية ورئاسة مجلس النواب ورئاسة الوزراء... وكانت المحاصصة هي الحاكم الأساس التي تتحكم في تحديد الأشخاص ومناصبهم، فرئاسة الجمهورية للكرد، ورئاسة مجلس النواب للسنة، ورئاسة الوزراء للشيعة، ولأن رئاسة الوزراء رئاسة تنفيذية فهي تمثل العمود الفقري، وقد تناوب عليها إياد علاوي، وإبراهيم الجعفري، و نوري المالكي بولايتين، و حيدر العبادي، وعادل عبد المهدي الذي استقال نتيجة الاحتجاجات الشعبية في وسط العراق وجنوبه... وكانت الأحزاب الشيعية تمثل الكلاب المسعورة التي ترسلها إيران والتي تفترس العراق وعاثت فيه الفساد وأهلكت الحرث والنسل... ومع الميزانية الانفجارية إلا أنه تذهب لجيوب الرئاسات الثلاثة والأحزاب ولم يبق منها شيء سوى الفتات الذي يقتات عليه الشعب والذي لا يغني ولا يسمن من جوع.

سعاد: كما قال الأستاذ عادل، لقد كان العراق فريسة للجميع وخصوصا إيران...

سعيد: دعيني أكمل لكِ: إن دخول داعش وهو أسم منحت للدولة الإسلامية في الشام والعراق والتي تنتمي عقائديا للمذهب السلفي والوهابي دخلت العراق في ولاية المالكي الثانية وتمركزت في الموصل والتي هزمت على يد الحشد الشعبي الذي تأسس بفتوى المرجع الأعلى السيد علي السيستاني قدس سره... يا سعاد لقد غفل الأستاذ عادل أحداث أخرى كتشكيل جيش الإمام المهدي على يد السيد مقتدى الصدر قدس سره للجهاد ضد الاحتلال الأمريكي للعراق، ونسي حادثة تفجير القبة العسكرية للإمامين العسكريين عليهما السلام في ولاية الجعفري، وكذا تشكيل سرايا السلام بأمر السيد مقتدى الصدر للجهاد ضد داعش وحماية المقدسات... ذكريني أخبره بذلك فهذه الأحداث تشكل نقطة مفصلية في تأريخ العراق...

أما المبحث الثاني فكان بعنوان (الاحتجاجات الشعبية بين سنة ٢٠٠٣ وسنة ٢٠٢٠) وقال في ملخص هذا المبحث: إن الاحتجاجات الشعبية قد تفجرت بقوة بعد أن مهّد لها السيد مقتدى الصدر قدس سره بالاحتجاجات التي كان يقودها حتى دخل الخضراء وتمركز المحتجين في وسط البرلمان، وبعدما اعتصم هو بنفسه في الخضراء، وكانت احتجاجات ٢٠١٩ أعظم الاحتجاجات فقد أيدتها مرجعية السيد علي السيستاني قد سره ووفر لها السيد مقتدى الصدر الحماية

بأصحاب القبعات الزرقاء، لأن الميلشيات قد أدركت نهايتها على يد هذه الاحتجاجات والتي كانت ساحة التحرير مركزها و كان المطعم التركي قد عبروا عنه بأنه جبل أحد بيتهم. و استخدمت الاحزاب التي تديرها إيران جميع الوسائل القمعية فقد قتلوا أكثر من ٣٠٠٠ محتج وجرحوا أكثر من ٢٣٠٠ وقد كان ابرز احداثه تلك الفترة مجزرة الناصرية ومجزرة النجف على اثر احراق مرقد السيد محمد باقر الحكيم، وحادثة السنك وحادثة الوثبة... وبعد أن استقال عادل عبد المهدي وقد تلطخت يداه بدماء الأبرياء بقت الكرة في ملعب برهم صالح رئيس الجمهورية والكتل البرلمانية، وكانت كتلة سائرون هي الكتلة الرئيسية مع الشعب والمحتجين.

مهلا سعاد: لقد تعجلت القول عن الأستاذ عادل غفر الله لي، فهذا المبحث الثالث بعنوان (جهود السيد مقتدى الصدر السياسية والعقائدية بين سنة ٢٠٠٣ وسنة ٢٠٢٠) قال في ملخص هذا المبحث: إن السيد مقتدى الصدر قدس سره بن المرجع السيد الشهيد محمد الصدر قدس سره وزعيم التيار الصدري والذي تعداده أكثر من ٨ مليون عراقي كان يمثل الرقم الصعب والشخصية الأولى في تأريخ العراق السياسي والعقائدي، فهو مؤسس جيش المهدي ولواء اليوم الموعود وسرايا السلام وأصحاب القبعات الزرقاء، وكان له الفضل في قمع الطائفية بين الشيعة والسنة في سنة ٢٠٠٦ و ٢٠٠٧، والزعيم السياسي لكتلة الأحرار وكتلة سائرون، والذي كان يمثل العقبة أمام الحكومة في أي

موقف تتخذه ضد الشعب العراقي، وكان الماء الذي به تنطفئ كل فتنة تقوم بها إيران وأمريكا عبر حكومتها الغاشمة...

سعاد: هذا ملخص بحث الأستاذ عادل والذي سيقدمه كرسالة ماجستير في السنة الأولى في دراسته وسأقومه لغويا، أما أنتِ بعدما سمعتِ هذه الأحداث وعرفتِ لغة كتابة التأريخ، ما عليكِ إلا أن تعدي الشاي.

سعاد: نعم فهذا أفضل وقت للشاي حتى أوقظ كوثر فهي ما زالت تغط في نوم عميق.

سمعت كل ذلك يا إلهي ماذا جنى العراقيون ليكونوا بين فكي الحكومة الغاشمة، ويتوالى عليهم الحكام الفاسدون الذين لا يخافون الله قط، ماذا حدث خلال هذه العشرين سنة أنه غير معقول أنهم قد عاشوا تلك الأحداث وما زالوا يستأنفوا حياتهم، فكم قد قتل منهم... ثم أن هولاء داعش المتخلفون لهم جديرون بكلام الغربيين عن الإسلام فهم من شوه صورته ونقلوه للعالم على أنه دين تخلف وحرب وقتل وتمثيل، وما قصة إيران أليست شيعية فما الذي حزمها على العراق وقد دمرته بكلابها المسعورة... إن الشعب العراقي لهو شعب عظيم، والفضل لهم جميعا لا سيما لقياداتهم الروحية كالسيستاني والسيد الصدر وابنه جزاهم الله خيرا.

ماذا عني أنا هنا هل سأبقى للأبد؟

أني أن أردت الخروج من الظلم لا أرتضي إلا بالعراق وطنا؟

دعني عن كل ما سمعت، ما قصة ذلك الشخص، الذي وجدته في عالم المنام، هو يشبهني ذلك أنه يعيش في جحر مظلم، ولا يرى شيئا ويسمع الأصوات فقط، وقد عرفت منه عملية حساب الزمن، كيف يمكنني أن ألتقي به مجددا لعله سمعا شيئا يثلج قلبه ويبرد غليله ويطفئ نار الشوق لديه، بخلافي فقد سمعت منذ الصباح تأريخ العراق وقد تنغصت نفسي وزاد كربي فوق كربي، بل هذا الظلام بعينه وهو أعظم من ظلام هذا الجحر.

منذ أن وجدت نفسي هنا وما سمعته لأول مرة من قصة سعيد مع ابته عن البنت التي شتمها أبوها، و صوت صلاة سعاد وبنتها، و حلتهم للناصرية للقاء ذلك العجوز الذي شاخ صوته وضعفت قوته، وما دار بين السائق وسعيد، وما دار مع سعيد عن التخاطر عن بعد، وما جرى بين سعيد وزوجته عن النكاح، وما ذكرته كوثر من مواقف لأبيها ، وخصوصا قصة المعري الأعمى، وما سمعته من صوت من صوت علي صديق سعيد وحوارهما عن الغرب... كل ذلك ما زال يعيش في ذهني ويسكن ذاكرتي ولكنه لم يكن له ذلك الضغط النفسي الذي أعيشه الآن بعد أن سمعت قصة العراق...

يا ويلي العراق عاش كل هذه المأساة كأنه يشبهني فأنا هنا قابع في الظلام، مع الفارق الجوهري أني أسمع فقط، أما العراق فهو يسمع ويرى، وساعد الله عينه رأت تلك المناظر وما زالت قادرة على الرؤية، أنا هنا

سمعت ذلك فضعفت قواي ونهد ركني بل عيناي اللتان لا تبصران شيئا قد جاءت غشاوة قاتمة وجلست بركبتيها عليهما.

يا ويلي أني أقطع بأني سأخرج من هنا عاجلا أو آجلا لكي أرى أرض العراق وألثمها وأكثر من النظر إليها وأبكي هاتين العينين على ثراه، واتكلم مع العراق وسيجيب بأن ذلك هين، فكل الذي جرى هين مقارنة بالذي قد مضى.

مهلا، لا زالت ذاكرتي تحتفظ ببعض الأوصاف عن طريق الناصرية ووجود الشركات والمعامل ووجود العملة المالية عن طريق الكارت، وما سمعت عن وصف السيارة وما سمعته عن ذلك الشخص من أنه سمعت صوت عال كصوت الطائرة، كل ذلك في العراق، إذن أنجلت الغبرة عنه وزالت الحكومات القمعية واحترقت ورقة إيران في أحزابها وكلابها المسعورة. إذن العراق قام على قدميه وتقدم خطوات للأمام بعدما جثى على صدره الظلام والظلم والفقر.

لكن كل ذلك سمعته بأذني ولم تره عيني، فلست أطمئن حتى أرى ذلك كله أجول بين شوارعه ومناطقه وأسافر بالسيارة و الطائرة لأتفقد كل ذلك. شوقا قد دخل قلبي وسكن فيه... يا رب يا رب يا رب أنك سميع مجيب لا تمتني كما فعل ذلك في عالم النور وعالم الناس حتى تخرجني من هنا لأعيش في العراق ولو لأيام وأسابيع معدودات. أي رب أسمع صوتي، أي رب أجب دعائي.

سمعت سعاد تنادي: يا أبا كوثر أن كوثر استيقظت من نومها وهي في حالة سيئة، وإن صحتها ليست على ما يرام، فهل نأخذها لمستشفى الصدر العام.

سعيد: مهلا، دعيني أراها.

وإذا بأقدامهما تسرع ونبض قلبيهما يدق بقوة، وصوتهما قد رافقته نبرة حزن وضجر، وكأنهما يعيشان في هذه اللحظة حالتي وحزني وهمي وكربي، وما إن تضجرت سعاد، حتى أحسست بضيق في صدري، وحزن في نفسي.

صوت حنون يتكلم بحذر: بنية كوثر ما بكِ؟

كوثر وقد ضعف صوتها: إن الحمى قد طوقتني من كل الجهات، وجسمي لا يقوى على الحركة، فهذه الحمى جاسية، ونارها حامية...

سعيد وقد أجابها بصوت دافئ : لا عليكِ، إن هذه الحمى ستزول، وسنتصل بالدكتور أحمد، ولا يتأخر عنا إلا قدر مسافة الطريق... سعاد، عدّي لكوثر ماء بارد، فإن النار تطفىء بالماء.

يا إلهي إن الأطباء يعالجون الجسم، ويزيلون عنه الحمى، ويعالجون أمراضه، لكن هل هناك أطباء لعلاج النفس؟ فإني أرى أن مرض النفس أشد فتكا بالإنسان.

وإن كان هناك أطباء فكيف يعالجون النفس بدون عقاقير؟ هل يستخدمون التخاطر عن قرب لمخاطبة العقل الباطن، والتحدث مع النفس مباشرة دون الحواجز التي شكلها المرض؟ أنا أشعر بأن الكلام الذي كانت تقرأه سعاد وكوثر في الصلاة والذي اسموه قرانا يأثر في النفس مباشرة، فما زلت متأثرا به على الرغم من أني قد سمعته من زمن بعيد.

بسبب انشغال فكري بهذه الأفكار فقد جاء دكتور أحمد وذهب وأجرى الفحص وذهب، وأنا هنا قابع مع الظلام ومع أفكاري... سأذهب للنوم لعل الشخص في عالم المنام لا زال هناك، فتمشيت مع النوم وذهبنا لتلك الشجرة ولكن ليس فيها أثر لوجده. يبدو أن الجميع يذهبون إلا أنا سأبقى وأبقى...

سمعت صوتا في دار سعيد يبدو عليه الوقار، وهو يقول: يا الله. من هذا؟ وإذا بسعيد يهرول إليه ويناديه: تفضل شيخ حسين، أهلا وسهلا في زيارتك هذه البركة والخير. وما إن جلس الشيخ حسين وقدم له الشاي. سأله الشيخ: أين كوثر، فهي التي كانت تأتيني بالشاي، وأنا كنت في سفر ومنذ زمن لم أرها؟

سعيد: نعم يا شيخ منذ زمن لم تزرنا، ومنذ المجلس الحسيني الذي أقمته في دارنا، أما كوثر فهي نائمة، لأنها تعاني من الحمى.

الشيخ: المسكينة، عجل الله لها الشفاء...

سعيد: ما أخبار مجالسك شيخنا ودراستك؟

الشيخ: المجالس الحسينية أصبحت مهجورة إلا من بعض المؤمنين وتكون فقط في محرم وصفر ورمضان، أما وفيات المعصومين فيكون مجلس واحد، وقد هجرت المساجد والحسينيات، وبقت فقط الذكرى لحسينية داود العاشور والملا باسم الكربلائي رحمه الله ما زالت قصائده ذات القدح المعلى، وقد توفي أكابر الخطباء كالسيد جاسم الطويرجاوي رحمه الله...

أما درسي فهو مستمر في النجف الأشرف، وقد خلت النجف من أكابر المراجع والأساتذة فقد مات المراجع الأربعة السيد السيستاني والفياض والنجفي والحكيم، وأصبحت المرجعية العليا للسيد محمد رضا السيستاني، وتوفي أكابر أساتذة البحث الخارج كالشيخ الإيرواني والشيخ السند... وإيران بعد أن قصفتها أمريكا قد ضعفت قوتها وقلت حيلتها وجثت على ركبتيها ـ وأنت تعلم أن أمريكا قد زالت عن الساحة وتسلطت الصين، فسبحان الله الذي يهلك ملوكا ويستخلف أخرين ـ وأنا لا زلت أدرس بعدما أصبح راتب الطالب يفي بالغرض، ولست متوقفا على المجالس والمدارس. والحمد لله الذي بيده كل شيء.

سعيد: وفقت يا شيخ لكل خير، ولأنك ذكرت المجالس، نريدك بعد شهر للبركة بمولدنا الجديد...

الشيخ: مبارك لكم أن شاء الله تعالى، ولكن ما الاسم الذي ستختاره له؟

سعيد: اسم مرتضى، يجول في خلدي.

الشيخ: أحسنت، فهذا الاسم لأمير المؤمنين علي عليه السلام، وأنت تعلم خير الاسماء اسماؤهم، وسيكون مباركا إن شاء الله تعالى.

هذا الشيخ شجع سعيد على اسم مرتضى وهو اسم جميل جدا... يا ويلي لم يخطر على بالي اسم ليس، منذ أن فتحت عيني في الظلام وسمعي لتلك الاصوات سمعت أسماء كثيرة كاسم سعيد وسعاد وكوثر وعادل وحسن وأحمد وهند وعلي وحسين... وأنا هنا ليس لي اسم. أنه لأمر محير جدا وقد زاد الشفرات لديّ...

راودني شعور قوي وإحساس أني سأجد تحت تلك الشجرة شخصا آخر وستكون لديه بعض الأجوبة... ذهبت للشجرة والنوم يمسك بيدي ويصحبني معه، وإذا بشخص تحت الشجرة قد نام ومدد رجليه وحبله السري يلتف حول أحد غصون الشجرة، يا ترى من يكون؟

دققت النظر وإذا بالشخص أنثى ذات عيون سوداء وشعر أسود وبشرة بيضاء مشربة بحمرة. ما أن وقفت عندها حتى استيقظت. سلمت عليها، فردت عليّ السلام. ثم قالت: من تكون؟

قلت: لا أدري...

وما اسمك؟

قلت: ليس لي اسم... وماذا عنكِ أنتِ؟

قالت: أنا إلى الآن لم يطلقوا عليّ اسم، ولا زلت انتظرهم لكي أخرج من هذا العالم وأعيش معهم في عالم النور وعالم النار.

قلت: ومن هم؟

قالت: أهلي، أمي وأبي وأخواني وجدتي.

قلت: وأين هم ؟

قالت: هم في الدار ينتظرون خروجي من بطن أمي... فأنا هنا جنين أعيش منذ ثمانية أشهر وأسبوعين في أحشاء أمي، وقريبا ستلدني.

قلت: وكيف عرفتِ ذلك؟

قالت: قبل يومين سمعت من التلفاز آيات من القران الكريم : (**ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين**) وكانت أمي تتحدث مع جارتها زينب، وأنها تحمل في أحشاءها بنت، وأن الله تعالى خلقها من نطفة... وبعد ذلك ذكرتا الآية وتفسيرها. فرجعت إلى نفسي وتفكرت وتذكرت الأصوات وما سمعته أمي من تقرير في الأنترنيت عن الجنين وحمله وكيف يكون في بطن أمه؟

وكيف يسمع الأصوات؟ وكيف ينتظر خروجه؟ وكيف يعيش في ظلام؟ وكيف يغط بنوم عميق وهو يأخذ أكثر عمره ووقته؟ سمعت كل ذلك فتفكرت فيه وبغتة ينقدح في ذهني ربما أكون أنا المقصودة ولكن اعتقادي يترجح بين الشك واليقين...

قالت كل ذلك وفجأة اختفت من تحت الشجرة، وبقيت لوحدي، فرجعت أمشي بهدوء كأن على رأسي الطير، وأخذت الأفكار تزدحم في داخلي، والشفرات تتمرقص أمام ناظري... ربما يكون حديث البنت الباب الذي أدخل فيه وأخرج لعالم النور، وكأن الله تعالى قد أذن لي بذلك. ولكن كيف؟ فأنا إلى الآن لا أعرف من أنا؟ وما اسمي؟ وأين أنا؟ ولماذا أنا كل هذا الوقت مع عائلة سعيد؟

سأرجع أنا والنوم عسى أن نسمع شيئا من عالم النور... رجعت سعاد تخاطب ابنتها: بنية اليوم عصرا سأذهب للدكتورة رغد لكي نحدد يوما، للدخول لمستشفى الصدر، ليخرج الجنين لعالم النور... قالت ذلك وهي تشعر بفرج، وتعد أشياء في غرفتها، وكأنها مقبلة على حدث مهم لها...

أما أنا فقلبي تتلاطم فيه أمواج الحزن وتكسر بأمواج أعتى منها أنها أمواج الحيرة، وليس لي قارب حتى أبحر هناك مع الرياح العاتية، أنه عالم قد أمتلئ بضجيج الأصوات ومختلف اللغات، وتتفاوت فيه الموجات المتباينة، وليس هناك شغل لأذني سماع تلك الموجات دون الوصول إلى كنهها ومعرفة مدلولها.

رجعت بخيبة أمل أجر أذيال الخيبة مطأطأ رأسي، ولست أدري إلى أين أسير؟ وفجأة جاني النوم فرحا مستبشرا وليس كعادته، فقال السلام عليك يا مرتضى. قلت: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته... ولكن هل اسمي مرتضى.

قال: نعم اسمك مرتضى.

قلت: الحمد لله، لقد أصبح لدي اسم لكي أعرف به.

قال: هل تصحبني في رحلة مهمة بها تعرف من أنت؟

قلت: يا لفرحتي، وماذا تنتظر؟ عجل بنا، فقد دبّ الشوق في عروقي.

فمشيت مع النوم وهو يقودني وأنا مبتهج والفرح يشق طريقه إلى قلبي، ورجلاي تتراقصان وهما تنقلاني إلى حيث نريد، أما عيني فهي تراقب الطريق عن كثب وكأنها كاميرا تلتقط الصور لتخزن في ذاكرتي لأسترجعها في وقت لاحق ... مشينا ومشينا حتى وصلنا لبستان كثير الأشجار وتحيط به الأنهار ويج فيه خرير الماء ، والجو فيه لطيف يشبه الربيع وهناك زقزقة لبعض العصافير، وهبوب الرياح التي تناغم القلب وتحرك النفس، واستمرينا بالمشي إلى أن وصلنا لقصر مهيب وعالٍ ويحيط

به الزجاج من كل جهاته، وفي مقدمته عرش مغطى بالرياش وقد احتضنته نخلتين وهو يسع لكثير.

ما أن اقتربنا أنا والنوم حتى وجدنا على العرش رجلا يلبس ملابس بيضاء ويعلو رأسه شعر ذهبي، وعليه الوقار وله هيبة، فسلمنا عليه فرد السلام، ودعانا للجلوس معه، فجلسنا وفجأة نام النوم وتركني لوحيد مع هذا الرجل الذي لا أعرفه سوى أني أنظر لوجهه و إذا به يقول له: يا مرتضى كيف حالك؟

قلت: الحمد لله، بخير إن شاء الله تعالى.

قال الرجل: أتعرف عن نفسك شيئا؟

قلت: لا.

قالت: أتعرف أين قضيت وقت هذا ؟

قلت: لا.

قال: ألست مقيدا في حجرة والظلام يغشاك من حدب وصوت ؟

قلت: نعم، كما قلت...

قال: فكيف جئت إلى هنا ؟

قلت: جاء بيّ النوم...

قال: تعني أنك جئت بروحك، وتركت جسمك مقيدا...

قلت: نعم، وأنا لم ألتفت لذلك.

قال: منذ كنت حبيس الظلام، وكنت تسمع الأصوات فقط، وأخيرا ألتقيت بأرواح هنا في عالم المنام، وأنت إلى الآن لم تعرف من أنت. ولم تعرفني.

أتعلم شيئا لقد كنت معك في الرحلات والحركات وسمعت كل الأصوات وأعرف أصحابها وصورتهم، فسعيد رجل أسود العينين طويل القامة نحيف البدن، أسمر البشرة... وسعاد امرأة ذات عينين خضراوين، ولها شعر ذهبي، وذات قامة معتدلة، وبشرة مشربة ببياض... وكوثر فهي في عمر المراهقة وطويلة القامة تعلو هامتها ظفيرة سوداء داكنة ولها بشرة حنطاوية داكنة...أما السائق وجدكم العجوز و وعلي وعادل وشيخ حسين وغيرهم كلهم أعرف صورهم وتفاصيلهم ولو شئت لذكرتها لك، ولكن لا أجد فائدة من ذكرها، لأنك ستراها قريبا..

مرتضى إنك كنت تنتظر لحظة الخروج من ذلك الظلام بفارغ الصبر لتكون في عالم النور، ولست تدري من أنت ؟ ولا أين أنت ؟ وفي أيامك الأخيرة هنا قد أراك الله أرواحا في عالم المنام إذ كنت قبل لا ترى

شيئا، ما ذلك إلا ليزداد تفكيرك وينضج وعيك وتربط ذكرياتك بما رأيتها ويقودك الخط ليكون مفتاحا لك لحل الشفرات التي عشعشت في بالك واستقرت في نفسك... وما حديثي هذا إلا لتذكيرك بذلك...

قال لي ذلك الرجل الأبيض وبغتة أختفى وأختفى البستان والنوم قد استيقظ وغادر. وبقيت لوحدي في عالم الظلام وأنا أحاول أن أمسك الخيط واسترجع الذكريات ... مهلا ما زالت ذكرى سعيد عاري مع سعاد في بالي فقد تكون هي الفتاح إذ طلب أن يغشاها وذكرت بأنها حامل وطلبت الرفق بها أثناء الاقتراب منه، ثم كلام الفتى في المنام الأول بأنه سيغادر بعد انقضاء المدة، وكذلك كلام الفتاة في المنام الثاني...

والسؤال الجوهري لماذا اسمع الأصوات فقط التي قرب سعاد؟ فلم أسمع أصوات العجوز عندما رجع سعيد وعائلته، ولم أسمع أصوات سعيد وهو يدرس في المدرسة، ولم أسمع أصوات كوثر وهي تدرس في المدرسة، ولم أسمع صوت علي إلا عندما حدّث سعيد زوجته بذلك، وكذلك لم أسمع أصوات عادل ولا أصوات الشيخ حسين، ولم أسمع أصوات أخرين فسعيد قد تحدث عن السوق وعن الجامعة وعن السفر وعن الطبيب وغير ذلك وكل ذلك أنا لم أسمع منها صوتا واحد.

الصوت الوحيد الذي اسمعه صوت سعاد وصوت من يحدثها. ثم ماذا يعني هذا الرجل الأبيض بقوله جدكم عندما ذكر العجوز؟

يا الله يا لدهشتي يا لغفلتي يا لحيرتي يا لشقاوتي... الآن عرفت من أنا؟ أنا مرتضى الذي قال عنه سعيد للشيخ حسين، أنا الحمل الذي حملته سعاد وهي تخاف عليه من كل شيء حتى من وصول سعيد لها، ولذلك حدثني الرجل الأبيض عن أوصاف سعيد وسعاد وكوثر، فسعاد هي أمي والتي أرقد في بطنها ولذلك أشعر بكل شعورها وألمها وأحاسيسها وسعيد هو أبي وكوثر هي أختي الكبرى...

يا لله الآن قد حللت جميع الشفرات، وسأخرج لعالم النور وأعيش مع هذه العائلة لأكون لهم رابعا وأعيش في ميسان وجدي وأخوالي في الناصرية وأنها لنعمة عظمى أن أعيش في العراق بعدما عرفت بعض تفاصيله. وأنها لنعمة أعظم أن أعيش مسلما شيعيا لمحمد وآل محمد والذين كانت أسماءهم في بالي ولم تفارقني قط.

بعد أن عرفت ذلك لا أبالي متى أخرج وأن كنت أعلم أني سأخرج بعد أيام فأمي سعاد أصبحت في الشهر التاسع وعندما أخرج سأكون جنينا ناطقا وأخبرهم بكل شيء.

ملاحظة:

الرواية من نسيج الخيال وكل شخصياتها خيالية وكل أحداثها خيالية إلا التي ذكرتها وهي تحكي واقعنا المعاصر. وقد يجد القارئ الكريم بعض الفروقات عن الروايات الأخرى التي قرأها كالسبك والحوار وتشابك الأحداث والحبك، ذلك لأن هذه الرواية هي أول رواية أكتبها